

ذاكرة المغفل

ذاكرة المغفل^٣

رواية

حيدر علي الجبوري

ذاكرة المغفل

اسم الكاتب: حيدر علي الجبوري

تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية

تصميم الغلاف: وجيه ياسر

الإخراج الفني: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى

رقم الإيداع: 20498 / 2018

الترقيم الدولي: 978-977-776-7765-7



Arabiclibrary2017@gmail.com

[Facebook.com/arabiclibrary2017](https://www.facebook.com/arabiclibrary2017)

السادس من أكتوبر - المحور المركزي - مول سيتي ستار

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

إن الماضي، يمتلك قضيةً حتميةً
في حياة المرء.

ما بين أزمنةٍ وأخرى

كان أول إلقاء قبض من نوعه قد واجهه في حياته، اختبر فيه وجوده كشخص وقع في مأزق مع فئاته حينما سحب قطعة الزجاج الشفافة التي تغطي المعلومات المكتوبة عن الحياة البدائية في متحف التاريخ الطبيعي بجامعة بغداد، وبدأ بكتابة ذكرى أنه وفئاته كانوا هنا، وأنه مع كل بني البشر الموضوعين داخل غرفة تاريخية، ويلبسون جلود الحيوانات، وطعامهم مما يصطادون من حيوانات وأسماك وطيور، والتي كانت تلك الكائنات أيضا مؤرخة على شكل تماثيل أو منحطة في أرجاء المكان الكبير المغلفة جدرانه من الداخل بالخشب الساج. كان معهم يدخل التاريخ في قصة حب جميلة، ترك بسببها أهم الدروس، وصار يحضر في الامتحانات فقط، وكل مسعاه لو أنه ينجح بالدرجة الأدنى التي يحصل عليها الكسالى في الكلية: خمسون. مع أنه كان يعتقد بثقة عالية أنه أفضل من ذلك بكثير، فاختار دراسة الحب والتفوق فيه حتى ظن أنه سيكون بيوم ما مدرّسا لمادة الحب التي سيتم استحداثها في كلية الآداب. في الأثناء التي كان يكتب ذكراه، وحينما سألها أن تخبره بالوقت بدقة من ساعة يدها، تم الإمساك بمعصمه بطريقة مباغته من قبل أحد موظفي المتحف، مع جملة أطلقها بوجهي العاشقين: كل ما أتمناه هو ألا تكونا من طلبة كلية الآداب. فابتسم المقبوض عليه في وجهه مع إقراره بأن الأمانة لم تتحقق. فكانت أولى الإجراءات سحب هويتهما، ثم اقتيادهما لغرفة إدارة

المتحف والاتصال بأستاذ التاريخ المسؤول عن ذلك المكان. في العشر دقائق الممتدة بين الاتصال ومجيء المسؤول، كان الأمر في نظره هينا، ولا يتعدى إجراءات تخويفهما وإشعارهما بالذنب إزاء عبثهما، لكن الأمر بدا جديا ومخيفا بعض الشيء، حينما بدأ المسؤول بكتابة الأمر لإحالاته إلى الجهات الأمنية للبت بأمرهما تحت قضية العبث بممتلكات الدولة، فكانت الوسيلة الشهيرة للفتاة للتعبير عن ورطتها هي البكاء، مع بعض ترجّح للأستاذ بأن يسامحهما وينهي الموضوع من مكانه هذا. أما رفيقها، وبعد أن رآها في حالة لم يكن ليتصور أنها مرعوبة بهذا القدر لا بسببه، بل لسبب عده تافها، وأن ما كتبه من ذكرى لم يكن هو الوحيد ما فعلاه، فالذكريات القديمة والجديدة منها، كانت مزدحمة لدرجة أنهما كتبا ذكراهما بخط صغير وبقلم رصاص مبرّي جيدا. فقال له الموظف الذي أمسك يده وقتها: لو أن أولئك الذين كتبوا رموا أنفسهم في البحر، هل سترمي نفسك وراءهم؟ فأجابه بسرعة خاطفة في محاولة إعادة ترتيب وضعه المرتبك: ولماذا لم تمسك أولئك الذين قبلنا كتبوا؟ فقد كانت كتاباتهم حافزا لنا كي نفعل مثلهم. وفي لحظة الرد من قبل الموظف والذي تجلت فيه ملامح الغضب، قاطع أستاذ التاريخ المهاترة بخبر إكماله التقرير، وأن الأمر قد قضي في هذا المكان. لكن العاشق قد استمد من قوة رده للموظف قوة أخرى، وأنه لن يجعل الفتاة تغادر المكان إلا وقد أعيدت لها هويتها، وأن ترحل بسلام حالا، وهو من سيتحمل كل العواقب إزاء ما حصل، وخلاف الأمر، فإنه سيضطر لاتباع أسلوب آخر لا يريد أن يلجأ له، مما جعل من كلامه علامة استرشاد لعيني الأستاذ التي حاولت اختراق الشخص الآخر

الكامن في ذاك المحب، لكنه أعاد تلك النظرات بمقولة أنهت المشكلة كلها وأعيدت الهوية للفتاة. وإليه أيضا، مع عقوبة رضى لها لأجل فتاته لا غير حينما أسرع في إعلان موافقتها. كانت العقوبة مسح ما كتباه تحت قطعة الزجاج، وكل الذكريات المدونة قرب كتابتهما، وبرغم السعادة التي اجتمعت مع بقايا الكحل السائل من عيني الفتاة، كان يشاهدها وهي تخفي ذكراهما بكل جدية بممحاة أخرجتها من حقيبتها، مع بعض نظرات خاطفة لزوايا سقف المتحف، ففي اللحظة التي كانا يدونان فيها، لم يكن أحد موجودا أبدا، وليس بالمستبعد أن يكون في المكان كاميرات خفية للمراقبة. لكنه وبعدما لم يستطع رؤية شيء في زوايا المكان، بدأ بالتمعن أكثر، وأخذ مشاهدة طويلة لحوت محنط قيل إنه تم اصطياذه في السبعينيات حينما دخل شط العرب، وتمت عملية تحنيطه لغرض وضعه في متحف التاريخ الطبيعي للجامعة، كان طوله يصل لخمسة عشر مترا، وقد وضع في الأعلى على منصة كي يراه الزائرون بشكل أكثر وضوحا، فلمح قبل أن يؤذن له بالمغادرة التماع شيء في عين الحوت، لكن إلحاح صديقه بمغادرة المكان قبل أن يتغير رأي أحدهم لم يمنح له الفرصة في التأكد من وجود كاميرا في عين ذلك الحوت المحنط. وبقي في ذهنه حتى وقت طويل اعتقاد بأن كل الأماكن، حتى الجميلة منها، والتي هي ملتقى العاشقين، قرب الأنهار وبين الأحرار، تحت الأشجار وفي الغيوم، ثمة عيون ترصد حركات الناس، وربما ليس الرجال هم المقصودين بتلك المراقبة، فالجواسيس فقط تتم مراقبتهم، لكن في تلك الأماكن الجميلة، تتم مراقبة النساء، ربما، لتسجيل نسب جمالهن، ومن منهن الأجمل في البلاد كلها.

بعدها خرجا من المتحف، قالت له: أول مرة أدرك ما الحرية، إنها هشة تماما، وتختفي بسرعة وبدون أن يدرك المرء ذلك. ثم رفعت بحركة جنونية أوراق محاضرات كانت تحملها وألقت بها نحو السماء، مع قفزة لم تكن مرتفعة بسبب وزنها الزائد بعض الشيء، ليدرك تماما أن هذي الفتاة التي تعشقه مخبولة، لا لأنها أحبت طالبا ترك دروسه لأجلها، بل لكونها لم تكن مصدقة بأمر إفلاتها من ورطة عظيمة، تجتمع فيها مسائل حب وعمل تخريبي ضد ممتلكات الدولة. فقال لها هو يرى أوراقها المبعثرة تعود إلى الأرض : أيتها المخبولة، من يراك يقول إن قصة حبك قد تكلفت فعلا بالزواج، وليس كما قصص الكلية المحزنة. فأطلقت ضحكة كادت أن تسقطها لولا أنها تمسكت جيدا بيده أمام الكثير من الطلاب وقالت له: أمر قصتنا مخالف، إنه خليط متجانس من العبث والحب والجنون وشيء من السياسة.



لم يضع في خانة توقعاته أبدا أن يرى نفسه ضائعا في كراجات العلوي أو النهضة وهو في هيئة جندي، والمرات الكثيرة التي كان يجلس بجانبه جندي تحيط رأسه هالة دخان كثيف تنبعث من سيجارته، في دلالة على أنه ملتحق لوحده، وأن ضيقه من النوع الذي لا يسمح له بالحديث من أجل اختصار المسافات وعدم الشعور بها أثناء سير الحافلة، تلك المرات الكثيرة لم تكن كافية لاكتشاف ذلك الكائن الآخر، وليس حتى بالمهم معرفة لوتفصيلة صغيرة منه، فقد كانت هنالك مرات هي أجمل بكثير من ذلك، حينما كانت تجلس بجانبه فتاته، ويعرفان أن نظرات الجنود وحتى الانضباط من ذوي القبعات الحمر تأكلهما حسدا، تأكل الشابين النظيفين وهما يسرفان الوقت بسعادة خرافية، بل إن العلوي بكل محلات أكلاتها السريعة، وكل سائقي حافلاتها، ومسافريها كانوا قد اعتادوا عليهما، مع اعتراف سبقته هي في إقرارها أمامه، وهو الذي كان يريد قوله لها، لكن ثمة ممانعة غبية كانت توقفه في الإقرار أيضا، اعترفت له بأنها لم تعد لديها إمكانية أن تسير لوحدها، بل اعتادت أن تسير معه فقط، ولم تعد تعرف المشي بطبيعة حينما تكون لوحدها، وفي واحدة من الأشياء التي حصلت، أن أحد الباعة الجوالين أسمعها كلاما لم يكن بالمعاكسة، بل حقيقة قد أدمنتها، فالقلب ليس معها هذا اليوم كما قال

ذلك البائع. حينها، اعترفت له بصعوبة اجتيازها المسافات بدونه. ومع أنه كان كذلك، لكنه أجل اعترافه إلى أجل لم يحدده، بل لم يقله، إلا أنه كتبه لها في واحدة من ليالي الشتاء الباردة، وهو مرتد لبذلته العسكرية حينما كان يستمع لإذاعة صوت العرب من القاهرة عبر الراديو، بعدما عصرته أغنية حزينة لأصالة نصري أثارت فيه جمر الشوق لها من بين رماد واقعه، فكتب لها بأنه قد أخطأ حينما لم يبادلها الاعتراف بأنه أيضا كان لا يستطيع المشي بدونها ولو مترا واحدا، وكان يشعر بنسيانه لشيء ما، أو أن هنالك خطأ لا يعرف ما هو. وكتب أيضا بأنه يقتات الآن على الذكريات الكثيرة التي ملأت كل أنحاء أزمته الماضية، وبإمكانه أيضا أن يستدق بها، ويأكل حتى منها، كتب: المكان هنا بارد، ومتسخ كثيرا وملئ بالجرذان والجنود المتعفين، لكن ما يجعلني أستمرفيه هو الماضي نحو نهايته عبر مسافة الزمن المجهولة طولا ونهاية، ولا فكرة لطريق مختصر، أو الرجوع. لكنه فيما بعد مزق الرسالة حينما تذكرها تسير بعنفوانها في دروب الحياة، ولا يعجبها الاستماع لشكواه. بعد حصوله على شهادة البكالوريوس، وزّع بقوة أنظاره إلى كل أرجاء الأماكن التي قضاه بأربع أعوام من الحب، وتمسك بفكرة رغم بدء زوال مفعولها في رأسه، لكنه بكبرياء خفية تمسك بها، وأنه سيكون أستاذا للحب في هذا المكان المشبع فيه، وبالجمال والشباب. شاهد مكان ارتشافه لشاي الصباح مع صديقه الذي أوكّل له مرة واحدة من المهمات الصعبة، حينما أنت من تحبه بزيارة مفاجئة له، مع أن فتاة أخرى كان قد تعرف عليها قبل يومين، وكانت بانتظار انتهاء درسه كي يشربا شيئا سوية، قال لصديقه: عامر، اذهب وشاغل الجديدة، بل

قل لها إن أمرا طارئا حصل وغادر الكلية، بل الجامعة، بل قل لها غادر العراق حتى، أما أنا، فسوف أذهب مع الأخرى بطريق أخرى. وافق عامر بالطبع، لكنه لم يجعل ملاحظته حبيسة دواخله وقال له: أقسم أنك لا تحب الفتاتين، لكنك مصر على إشراكي بخديعتك كي تواصل لعبتك الغربية. لم يكن هناك أي مشترك بينه وعامر، بل إنه كان من النوع القافز عبر كل شيء، ولا يملك قياسا أبدا لمسافات الحياة، يعيش كما شاء، بلا خطط، ويتمتع بإسراف الوقت في التمتع والنظر عبر نوافذ الحافلات التي يستقلها، يقرأ كل شيء يقع بيديه، ومغامر بسيط ولم ينافس يوما أحدا. وشاهد أيضا، الأماكن التي شعر بأنه لم يعد له انتماء لها، تلك التي قضى أهم الأزمنة فيها، لكنه لم يواصل النظر لها كما أماكن شرب الشاي، وقال لوثيقة تخرجه التي استلمها كي يُرسل بها عبر التجنيد إلى الجيش، قال لتلك الورقة: ثمة أماكن هنا لا تريد النظر إليّ بسببك. ولا أريد أن يتطور الأمر أكثر من ذلك وإلا أحرقتك وأحرقت من أعطاني إياك. لكن تلك الوثيقة دونت أقوالها في دائرة التجنيد، وأخبروه بوجوب تواجده في الأول من شباط للالتحاق بالجيش، مع ملاحظة أكملها هو حينما أتم ما كتبه موظف التجنيد في دفتر خدمته: وعليك أن تخفف من كثافة شاعريتك إزاء الحياة، ففي المعسكرات لا توجد مراحيض، بل يتبرز الجنود في العراء بين الظلام وبلا ماء تنظيف. قال ذلك اقتباسا لما قاله المبشرون له ممن سبقوه في الخدمة العسكرية، أو من وجوه كل الجنود الملتحقين الذين جلس بجانبهم في حافلات السنوات الأربع، السنوات التي اختصرتها الخبرة العسكرية بورقة واحدة صغيرة في دفتر خدمته العسكرية، بعد الورقة الأولى المدون فيها

اسمه ورقمه العسكري، مع صورة له ظهر فيها جنديا ما يزال عليه بعض بريق الماضي القريب، بشعر كثيف مقلوب للخلف، ووجه صاف اعتنى به من أجل أن تراه فتاته التي اختصر فيها كل مغامراته بحب مؤجل لما بعد التسريح، أما الورقة الثانية، فقد كُتب فيها أنه تخرج من الكلية وحضر من أجل أداء الخدمة الإلزامية، فتوجب حضوره من أجل الالتحاق إلى معسكر تدريب الحلة، الساعة السابعة صباحا، حينما وجد الكثير من مثله، وبعد حفل شكلي في استقبالهم، استلم حذاءه العسكري أسود اللون، بعد عناء في العثور على الفردة الثانية له، فحينما تم إعطاؤه الحذاء، وجد قياس إحدى الفردتين كان خمسة وأربعين، والآخر برقم واحد وأربعين والذي هو مقياس قدمه، فبدأ بالبحث عن الرقم الملائم مع الجنود الحائرين بنفس المشكلة، حتى وجد أخيرا الرقم المطلوب له، فبقي ذلك الحذاء القوي حتى آخريوم في الخدمة، دون أن يتأثر بكل ما داسه من وحل وقذارات جنود ومسافات طويلة. كما استلم بذلة تدريب كانت تكفي لخمس من هم مثل جسده النحيل، بذلة بلون التراب مع حزام من القماش، ثم أخبروه ومن معه بأن يوم غد سيكون اليوم الأول للتدريب، ويجب حلاقة الشعر تحت رقم أربعة، وحلاقة الذقن بدرجة صفر، والتواجد في المعسكر قبيل شروق الشمس، فودع وهو يشاهد نفسه في مرآة الحلاق شعره الأسود اللامع، وتعرف بالشخص الجديد الذي ظهر على وجهه، شخص لا يتذكر أنه التقاه في الجامعة كلها، ولا في أي زاوية من زوايا التسول في الكراجات أو الأسواق، ثم حلق الذقن لينهض على كلمة الحلاق الشهيرة: نعيما أبو خليل.

بات المعسكر مكانا خلايا بالنسبة له، على امتداد واحدة من جهاته يجري نهر الفرات، ولطالما تأمل في طيور النوارس التي كانت تحلق فوق النهر، لكن ما كان يراوده هو تلك الفكرة الملتصقة بذهنه في أنه محكوم بأمر مكره عليه، حتى حجم التأمل الذي يسود المعسكر كله، من بدايته وحتى آخر متر منه، لا يمكن أن يعطي لروحه الحرية التي كان يغرف منها بنهر الأيام الماضية. فسمع أول أمر تلقاه عبر مكبر الصوت من أمر المعسكر الواقف في منصة مسقفة بالحديد، وتتوسط الجانب المقابل لنهر الفرات، سمعه يأمر العرفاء أن يرتبوا وقفة الجنود بشكل فصائل، وعلم أنه في الفصل السابع للسرية الثالثة ذات الراية الصفراء، وبعد لحظات أمرهم ثانية أن يجلسوهم على الأرض الإسمنتية المتربة، الممتدة بشكلها المستطيل لأكثر من خمسمائة متر. وحينما اقترب منهم، رآه بصورته التي كانت على شكل معركة قديمة حصلت في وجهه، واستمرت دون انتهاء، لا منتصر فيها سوى الخوف والدمار والكر والفر. كان ذو شارب أسود كثيف، ينحني نحو الفك الأسفل كما لو أنه مقود دراجة هوائية ويتأبط عصا التبخر التي قيل إنها سقطت مرة منه، وسط ساحة التدريب المسماة في لغة الجيش بساحة العروض، أمام الجنود المتدربين، والعرفاء المدربين والضباط المشرفين في المعسكر، فعاقب نفسه بعدما أمر بجلب ماكينة

الحلاقة، وبدأ بقص شعره إلى الدرجة صفروأمام الجميع، ثم غادر المكان. كان طويل الجسد ضخم برتبة عميد ويرافقه دائما جندي أسود كما الزوج، طويل أيضا ومستقيم كقلم رصاص. وبعد ساعات من الجلوس على الأرض المترية، توجه مع الجنود الكثيرين بأمر أيضا إلى قواطع استراحة المتدربين، كي يأخذ حصته من الغذاء العسكري الحزين، والذي كان عبارة عن قطعة صمون حزينة سمراء كروية الشكل، مع قذح شاي بارد مر أكثر مما هو حلو كوجبة غذاء يوزعها العرفاء بمهانة عظيمة. بين ساحة التدريب وتلك القواطع كان الطريق الممتد بنحو ثلاثمائة متر محفوف بأشجار الكالبتوس الميتة أكثرها، وكانت الغربان تجلس على فروعها المتيبسة بهدوء وصمت لم يعرف ما سببه، حتى إنه أراد أن يقلد صوتها وينعق كي تترك تلك الأشجار، أو أنها تفعل أمرا غير خمولها وتمسكها بالأغصان اليابسة العالية. قال لأحد الجنود الذي يسير في صفه ضمن الفصيل: ما يزيد جمالية هذا المكان هو تلك الغربان الكسولة، المشهد هنا مرعب أكثر مما هو عسكري. فقال له الجندي بأنه يسكن في الريف والغربان تحب الأماكن المقفرة، ولا تحب البشر. فمضيا معا نحو قواطع الاستراحة التي تفرق فيها الجنود. بعضهم دخل يستطلع ما بداخل أبنيتها، فقد وجد أسرتها بلا فراش، وبدأ بعضهم بجلب علب فارغة من الكارتون كي يستلقي لبعض الراحة على الأسرة، بينما انتشر آخرون في ظل المباني، وآخرون استلقوا بعدما وضعوا قبعاتهم العسكرية على وجوههم لأجل بعض غفوة، كان يبدو الأمر مملا في كل شيء، فلم تكن هنالك بداية تدريب، بل ضجرو وقت طويل، حتى مجيء الخامسة عصرا والتي يخرج الجنود القريبين من المعسكر ذهابا

لبيوتهم، ويبقى الآخرون المجبرون على المبيت بسبب بعد المسافات بين منازلهم والمكان. أما هو فقد خرج قاصدا المنزل المبتعد نصف ساعة عن المعسكر، بعدما أنفق يوما بعبثية كان قد قرر أن يكتبها وحتى آخر يوم من خدمته في الجيش، تلك المسافة الزمنية المجهولة المظلمة، حيث قال أول ما كتب: لا أدري ما سيحصل، لكنني لا أرى الآن ضوءاً في النفق. كان قرار كتابته هو الإيقاع بالأيام في تدوينها، وربما سيشعرها بالعار بيوم ما حينما تنتهي مرحلة العبثية الممتدة لعام ونصف حينما يقول لها في آخر يوم وفي آخر ورقة وآخر سطر يكتبه: لم تكن شيئا في الشهور الثمانية عشر الرمادية، أما أنا، فأربعة أعوام كافية لي في أن تخرج لسانها نحوك وتستخف بغبائك. في اليوم الأول من تدوينه، كان يستذكر ويقارن الأيام بالأيام، ووجد أنه المغفل الذي لم يكتشف نظرية التمسك بالزمن، فأفلت منه في أجمل وقت من العمر. قرر بسرعة أن يضع عنوانا لتدوينه حياته الجديدة تحت مسمى: أيامي الأخرى. إلا أنه تراجع وترك اختيار العنوان لو مؤقتا من أجل ما سيستجد. كان حينما يرجع في كل ليلة من التدريب، يتجاهل الإرهاق الذي أصاب روحه إصابات بليغة إثر المشاهد التي صادفته عبر نهار التدريب، ويتجاهل إنهاك الجسد المعتاد على نعومة الحياة، ويبدأ بالكتابة لورقة أو اثنتين، ثم يطوي ما كتب ويودعه بين القصص والروايات في مكتبته الصغيرة. ومنذ الفجر البارد في اليوم الذي تلا اليوم المضجر، في الرابعة فجرا، كان يخرج متجها للريم، الحافلة الشهيرة في البلاد، التي نقلت هي وأخواتها جنود حرب الثمانينيات، تأخذهم نحو البصرة وكل الجنوب، منهم لم يعد يركبها بعدما انتهت حياته في معركة ما من تلك

الحرب، ومنهم من صارت ذكرى بؤس له كلما شاهدها بعد انتهاء الحرب. الريم التي تنتظر الجنود كل فجر كي تقلبهم للمعسكر، يركبها هو أيضا في أول خطوة للذهاب، بعد ذلك يدخل مع الكتل البشرية المظلمة إلى المعسكر انتظارا لصفارة العريف المعلنه بدء التدريب. رأى لأول مرة العقوبة التي يفرضها العريف على الجندي، حينما شاهد جنديين يتدحرجان ويقتربان منه، وشاهد كيف تتسخ ملابسهما بتراب الأرض الصلبة، فقال يهمس لنفسه: كنت أظن أن الشمس تشرق كي تنشر الحب لكل الناس في بداية جديدة، لكنني لم أكن أدري بأنها تشرق كذلك بسخط على الآخرين. قال ذلك كي يحفظ ما ارتجله من أجل التدوين. لكن مقاطعة من صفارة عريف أتت في وجهه مباشرة محت ما كان ينبس به، ثم أعقب صوت صفارته زعيق بصيغة سؤال له: ما بك تتحدث مع نفسك، هل تعاني من جنون ما؟ فتم محوكل ما كان يهمس به إلى الأبد، وبرغم محاولاته بعد انتهاء اليوم في إعادة ترتيب ذاكرته واستجلاب تلك الكلمات التي ظنها أنها ملائمة جدا لإشارة في حياة الناس. لكنه أخفق بالفعل وإلى الأبد أن يعيد ولو بصياغة أخرى تلك الجملة التي أعجبته قبيل شروق الشمس بذلك النهار البارد، وكتب أحداثا أخرى صادفته مع سخطه العظيم على ذلك العريف الوغد. فقد أنهى ورقة ذلك اليوم بخاتمة أخذت ورقة كاملة إضافة للورقة الأولى، كان مما فيها: لا أدري ما الذي كنت أقوله حينما مر من قربي أولئك المعاقبان، لكنني متأكد تماما بأنني كنت حينها على قيد الحياة، ثم بعد لحظات قليلة، لا أدري ما الذي حصل، وعلى يقين تام، بأن ثمة جزء من حياتي تم قطعه من الشريط المصور لها. وحقيقةً، لا أدري ما هو.

في يوم الجمعة، كان يحاول تنفس أكبر قدر ممكن من الهواء المنقى من ذاكرة المعسكر، وأدرك جيدا بأنه يحاول إيقاف الوقت بالمضي في قطع المسافات، وبسبب شعره الخفيف المشير إلى أنه جندي بائس جديد، كان يحاول الابتعاد عن كل مرآة أو واجهة محل زجاجة كي لا يرى نفسه، فافترض بأن قصّة تشبه قصة شعره اكتسحت كل محال الحلاقة في العالم أجمع، مما اعتبرها المهتمون بالجماليات بأنها الثقليّة التي ستدوم وقتا طويلا، وأكثر من أي ثقليّة أخرى: إنها ستدوم لسنة ونصف. قال لرجل كان قد سأله عندما كان يتأمل في نهر مدينته المغطى بالطحالب. لكن الرجل قال له بأن مدة التدريب فقط سيكون شعره خفيفا، وحينما يتم نقله إلى وحدة ثابتة، سيعود كما السابق، لكن ليس بالحرية الكاملة، بل بمراعاة ضوابط الجيش المعروفة. - الجميل في الجيش هو أنك ستستكشف أماكن جديدة، وستنتقل بواسطته إلى محافظات العراق، كما أنه يصنع الرجال. ويصنع من قلوبهم مادة تعرف مواجهة الحياة.

كانت تلك المواساة ليست كافية لأن يتقبل ما صار عليه، وكل ما يريده هو الخروج بأي طريقة من تغيّر نوع الحياة. ومع أنه لم يكن الوحيد الذي تخرج من الكلية ليدخل الجيش، وليس أول إنسان يلبس زيا عسكريا، لكنه كان

يرفض الفكرة برمتها، ويسمع مما كان يقوله عزيز المصري، المصور الذي أكمل كلية القانون بجامعة الزقازيق. وسافر من بلاده فور تخرجه إلى العراق ليجد عملا لا ربط بينه وبين شهادته. قال لعزيز: لكن ما أنت عليه هو أفضل مما أنا فيه. لا يوجد في العالم إنسان يُرغم بعد تخرجه أن يدخل الجيش، ولا يوجد بالعالم خريج يقضي سنة ونصف كأنها محكومية لا تميز في تخفيفها. كان مع إعطائه الأمثلة في الذي لا يوجد في العالم ويوجد في العراق يزيده انفعالا، حتى قاطعه عزيز: إيه يا عم اللي دوشتنا في العالم؟ هو انت شوفت أيه بيحصل هناك؟ كلها كم شهر وترجع تلف زي ما انت بتلف دلوقت، تدور على شغل وجواز وتنسى كمان. بس أفكرك بحاجة مهمة: حب المكان يحبك هو كمان.

لكنه أجاب المصري بأن ما سمعه كله كلام أغاني عبد الحليم، أما الواقع فلا يحتاج غير أم كلثوم. فضحك الاثنان وعاد يقطع المسافات، حتى مغيب الشمس حينما رجع بعد بساعة إلى المنزل للتحضير ليوم الغد، حلق ذقنه، ثم أخرج أوراقا جديدة فارغة ليكتب فيها ما جرى اليوم، قال بأن قدميه متعبتان من المشي، لكنه يشعر براحة من نوع تعب، وأنه يحاول محو الغد من تقويم أزمته كي يتخيل جيدا. ثم أخرج كتابا وبدأ يقرأ حتى أخذه النوم نحو اللحظة التي استيقظ فيها، في الرابعة فجرا، كان يقطع المسافة مشيا نحو الحافلة لنصف كيلومتر، يسمع نباح الكلاب القريبة منه والبعيدة، ويرقب مصباحا أحمر لبرج الاتصال الوحيد في المدينة. والذي كان الوحيد المضيء في ظلام المدينة كلها أيضا. كان ذلك اليوم بالنسبة له بداية جديدة، مع أنه اعتبر أن كل يوم يبدأ وهو في الجيش له بداية جديدة ومريرة، لكنه اعتبر نفسه بطلا لم

يعرف في أي وقت خُلِق فيه، فقد أنفق أوقاته كلها في المرح والخيال والقراءة لقصص حب شفافة، إلا مرة واحدة حينما اشتد الأمر عليه مع فتاته في متحف التاريخ الطبيعي، ففي تلك اللحظة وجد بداخله بدويا شديد الجسد، لا يتكلم إلا قليلا، ويفعل الكثير. فحينما أصرَّ أستاذ التاريخ عليهما في مواجهة ورطتهما، أصر هو على أن تغادر الفتاة المكان فورا وإعادة هويتهما لها، وإن لم يكن ما يقوله فإنه لن يلوم نفسه لو أنه أحيل إلى الأمن بحرق المتحف، وشوي الحوت المحنط، أو أنه سيتقاتل مع أي أحد حتى لو كان عميد الكلية، أو رئيس الجامعة أو حتى وزير التعليم العالي. فقرر أستاذ التاريخ إطلاقهما لسبب أفرغه كله في وجه العاشق الغاضب حينما قال له بوجه باسم: لأجل حبك هذا ووقفك مع فتاتك، أنتما حران، مع عقوبة تذكارية لأجلي. كان ذلك البدوي الصامت لا يخرج إلا وقت تأكده إن خروجه لأمر واقع وحتي. فاستيقظ مرة أخرى في ساحة العروض، التي قال عنها الجنود الباقين إن ذلك البدوي غبي، فهنا لا يمكنه المقاومة برمحه القديم البذلات العسكرية والأوامر والسلاح. فحينما كان الفصيل في وضعية المسير، حصلت أخطاء في حركات بعض الجنود مما أدى إلى إرباك النسق في مسير الفصيل كله، مما حدا بالعريف أن يأمر مجموعة من أولئك المتدربين بعقوبة الركض نحو الشجرة التي تبعد ثلاثمائة متر عن الفصيل، كان الجندي الأول الذي يصل إليها ويعود يعفى من العقوبة، أما الباقين فتعاد عليهم حتى يقرر العريف عودتهم لفصيلهم، فكان هو من ضمن المعاقبين في تلك المجموعة، ولما انطلقوا نحو الشجرة، كان هو الواقف الوحيد الذي لم ينفذ أمر مدربه، وكان ذلك يعد جريمة كبرى، فعدم

تنفيذ أمر العريف هو بمثابة انطلاق نحو عدم تنفيذ أوامر أخرى ترقى إلى ساحة المعركة. وإن عقوبة ذلك هو إهانة أشد فتكا وسجن لعشرة أيام. قال له العريف أن يلحق بجماعته، لكنه أبى حتى يعرف سبب العقوبة. فأمره بالدرجة على الأرض لحين سماعه أمر الانتهاء الأمر، فرفض مجددا وأعاد له بأنه يريد معرفة سبب عقوبة الركض، فقد كان يسير بشكل جيد، وملتزم بإيعازات المدرب. حينها، قرر العريف أخذه إلى أمر المعسكر المخيف، والذي كان كعادته يراقب عن بعد من تحت المقصورة المعسكر كله، لكن وبعد أمتار قليلة، عبر العريف عن استيائه لعدم احترامه أمام الجنود، وأنه على استعداد لمسامحته لو أنه نفذ العقوبة، لكنه رفض مجددا حتى صاح بوجهه العريف بأمر عودته إلى الفصل، وأنه لم يصادف خريجا مجنونا مثلما التقى اليوم، فكانت العودة للفصيل بنصر البدوي المختبئ، وتصفيق خجول خائف وصامت من قبل الجنود الخريجين ضمن فصيله، أعاد لروحه شيئا كان يفتقده، وظل يفتقده حتى نسيه حينما دخل من البوابة العريضة للمعسكر ذات الأربعة أمتار طولا وارتفاعا، فتذكره في الليلة التي انتهى بها ذلك اليوم بنصر كان يدونه في أوراق يومياته، مع بسملة هادئة كانت تلتصق بشفتيه، حينما رأى ظل يده الممسكة للقلم من خلال ضوء الشمعة الموقدة على مكتبه، فقال وهو يكتب ما يقوله: إنها يد البدوي.

فجر اليوم الثالث والعشرين من العمر العسكري، كان المطر يبلل بملابسه وهو في طريقه إلى الريم، وكانت برك الماء تنتشر في أماكن كثيرة من ساحة العروض، لكنه شعر بنسائم الفرات بعد توقف المطر قبل بدء التدريب بنصف ساعة، كان يشم وهو مغمض العينين كل ما تركه المطر في الشجر والأرض الإسمنتية المبللة. وكل يوم، نزع قميصه العسكري، ورأى تنمل جسده بفعل البرد، وتمنى لو أن هذا اليوم لن تنبعث فيه الرائحة النتنة من أجساد الجنود بعد الهرولة كما كل صباح، كان يشاهد الغيوم المتفرقة فوق سماء الحلة، البعض منها بدت رمادية محملة بالمطر كما قال أحد الجنود، وتمنى لو أنها تمطر عليهم كي يجبر العرفاء بأمر الضباط بإيقاف التدريب والانصراف نحو القواطع، لكن جندياً آخر قال له بأنه على ما يبدو لم يسمع بحظ الدولة، إنه حظ يطيح بكل إنسان كي يستمر عملها ولا يتوقف، لكن أمراً جاء من أحد الضباط عبر مكبرات الصوت كان مفاده إرسال متدربي المعسكر إلى المشاجب، وهي مخازن بندقية الكلاشنكوف التي يتدرب عليها الجنود بعد إكمال تدريب المسير والاستعداد، تدريبات كانت تقتله ضجراً كثيراً، ولطالما كان يقول عنها أنها ألعاب كبار تافهة، لكنه كتب عنها أيضاً بأنها لا تمت للمعركة بشيء، وفيما بعد، بعد أن توغل في زمن الجيش عبر الشهور، رأى بأن تلك

التدريبات كانت لغاية واحدة، وهي تعلم إطاعة الأوامر بطريقة الصبر الغبي، وأن يتخلى الإنسان عن تفسير الظواهر في هذا العالم الغريب ذات اللون الواحد، ثم ينفذ دون أن يناقش. تم اقتيادهم بوضعية المسير المنتظم إلى المشاجب بحجة تسليم البنادق، لكن ما أشيع من قبل الجنود بأن الحرس الجمهوري قد أتى ليأخذ حصته الكبيرة من الجنود، والكثير منهم لا يرغبون بدخولهم عالم الحرس ذلك لصرامة حياته بكل تفاصيلها، ومشقة تدريبه الذي لا يتوقف، وهو الواجهة المقاتلة الأولى في حروب البلاد. رأى أحدهم يتسلل حتى وصوله النهر، وقفز رغم برودة المياه، فتبعه آخرون حينما رأوه يسبح متجها نحو الضفة الأخرى، رأى آخرين يتوارون خلف جذوع الأشجار، وآخرين رشوا العرفاء كي يخفونهم، أما هو، فلم يكن أي من أولئك، وذهب مع أكثر من ألف جندي نحو المشاجب، بل إلى أرض فارغة مطوقة بسياج مشبك، أدخلوهم فيها، وبعد عشر دقائق من الانتظار المريع، شاهد ضباطا يضعون المثلثات الحمر في الجهة اليسرى من صدورهم، كما وتلتصق تلك المثلثات على سواعد بذلاتهم، فبدأوا باستدعاء كل اسم ينادوه، ثم يتجه من ينادونه بعد ذلك إلى الحافلة، كان أمر المعسكر يقف قرب أولئك الضباط، وبدأ عليه الغضب بسبب هرب بعض الجنود، والذين لم يكونوا حاضرين أثناء الاستدعاء. رأى جنديا ذهب إلى الأمر يتوسله الإعفاء من ذهابه، لكن الأمر أبلغ مرافقه الأسود أن يمسك بيديه بقوة، وشرع بضربه بعصاه حتى سال دمه من أنفه، ثم بعد ذلك ذهب به المرافق إلى حافلة الحرس وهويبيكي كما لو أنه طفل فقد أمه في زحمة السوق. وخوفا من ذلك المشهد المريع، لما سمع اسمه قال

كلمة نعم بكل استعداد، وهو يرقب الأمر عما سيفعله إزاءه كجندي مستعد ويريد الذهاب مع الحرس الجمهوري، وحينما اجتاز ممن ينتظرون أسماءهم، نهرة الأمر بأمر صارم ومرعب، وأن يذهب بسرعة إلى الحافلة، فاتجه مسرعاً وبكل استسلام. ولأكثر من ساعة ونصف، كانت الحافلات السبع تتجه بالجنود المنقولين إلى معسكر التاجي، حيث سيبدأ تدريبهم من جديد، ومما دونه في يومياته بعد ثلاثة أيام بلياليها ونهاراتها التي قضاها هناك، كتب بأن الشمس بإمكانها أن تغيب قدراً ما تستطيع، وتتفق مع الليل بأن يأخذ راحته ويطول قدر ما استطاع، ففي الخامسة عصراً، وصل إلى المعسكر الجديد، وأول ما فعله هو تأمله للمكان بأرضه وسمائه، كان مكاناً أكبر من معسكر الحلة بعشرين مرة، تنتشر الأشجار الكثيفة فيه مكونة مخبأً آمناً للطائرات السمتية المهددة بأي لحظة للقصف من الأمريكان، وكان هنالك سكة حديد للقطار تمتد خلف السياج المشبك، لكنه طيلة السبعة والعشرين يوماً التي قضاها هناك لم ير أي قطار. وبدأ المكان أكثر وحشة، فلا نهر بجواره يمر، ولا حتى بيوت تظهر في الأفق كما معسكر الحلة الذي كانت بعض المنازل تجاوره. ومرة أخرى أجلسوهم على أرض إسمنتية متربة، حتى مغيب الشمس وحلول الظلام، فقليل لهم أن يتجهوا نحو القواطع لغرض الاستراحة وفي الصباح سيتم من جديد توزيعهم فصائل وسرايا. ذهب كما الآخرين نحو البنايات القريبة جداً من ساحة العرضات، فوجدها بدون مصابيح حتى، ويبسط الظلام أجنحته عليها، وبرغم ما لمسه من تجاهل واستقبال بارد من قبل أهل المعسكر، لكنه ظن بغباء بأن أرضية المبنى الذي دخل فيه كانت مغطاة بأفرشة للجنود كي

يأخذوا بعض راحة من عناء اليوم، ولما قفز نحو الفراش المفترض، اصطدم بأرض صلبة قاسية لم تشفق على عظامه، واكتشف بأن الإسمنت الأسود الذي كان يغطي الأرضية تلك، اتفق هو أيضا مع الظلام بالإيقاع بكل مستجد هنا، من أجل تعلم أول دروس القسوة، وألا يتوقع أحد الراحة تتسكع في أي مكان. فكان الجميع قد نسوا أمر الجوع بسبب البرد الذي لم يكن أحد قد استعد له، فلا أغطية هنا مطلقا، مما اعتبر بعض الجنود بأن ضربة حظ قد وقعت لجنديين أو ثلاثة حينما وجدوا بعض أكياس النايلون كي يغطوا فيها، وآخرون كانوا يستدفنون بما تبقى لهم من سجائر. كان يبحث دون توقف في الخارج عن أي حل يكتشفه أحدهم كي يقيه البرد، فرأى بين الظلام جنديا يقشر جذع شجرة لأجل حرق لحائها، وبدأ بإشعال النار، فاقرب عند ذلك الدفء الخرافي وصار ينظر إلى جهة الشرق مع تساؤل بنفسه كان يقول: ترى، هل ستشرق الشمس مرة أخرى؟ فغفا حتى أيقضه البرد حينما وجد أن النار قد خمدت، ولم يتبق منها سوى الرماد. ورأى بصيص ضوء كان ضعيفا جدا في الأفق، في علامة بأن النهار صار يقترب، لكن الإنهاك أطاح به برغم تفكيره بطرق عن الدفء، منها حينما اكتشف ما أسماها الطريقة الفرنسية مع جندي معه، اسمه يوسف، كان قد حصل على شهادة في الهندسة، الطريقة كانت بأن يضع كل واحد منهما رأسه بين فخذي صديقه، ولأنهما كانا بنفس الحجم، فقد كانت الطريقة ناجحة لعشر دقائق فقط، فقد كان عليهما ألا يتحركا مطلقا، غير أن الطريقة قد أخذت خلودا لها بسبب اسمها المرتجل منه. حينما حل الصباح، كان الجميع مهزوما من أول معركة بلا عدو بشري،

فتم جمع الكل في ساحة العرضات، وكان ضابط برتبة مقدم يسألهم إن كانوا يحتاجون شيئاً خصوصاً وأنهم جدد، فكان الطلب الوحيد الذي خلق ضجيجاً في المكان هو احتياجهم للأغطية والفراش، فأجابهم بأن طلبهم هذا هو مطلب أطفال، وقال بسخرية لهم: كيف ستحتملون المعركة إذن وأنتم تتباكون على أغطية؟

كان نثيث المطر يرسل به إلى عوالم تأمل أبدية، حينما كان يطلق بأنظاره عبر نافذة الدور الثاني من مبنى الجامعة إلى أشجار النارنج ذات الثمار اللامعة المبللة، غير أنه لشرح الأستاذ، ولا يكتب لأنه لم يعد يجلب معه أي قلم أو دفتر، لكنه رغم عدم انتمائه الواقعي إلى الكلية كطالب، كان يقرأ المصادر التي يملها الأساتذة على الطلاب في بداية الفصل الدراسي، وإذا أعجبته المشاركة في المناقشة بموضوع ما في الدرس، كان يطرح ما قرأه، والذي لم يقل به الأستاذ، مما يجعل في الأمر إثارة سرية مع الشارح. ومما لم ينسّه، أنه حضر الامتحان، ولا يدري بأي مادة سيكون، لكنه علم من طالب معه في القسم بأن يوم غد امتحان، فشكره ولم يقل في أي درس، ولما دخل قاعة الامتحان على رهان استعارة القلم والورقة من الطلاب، خالفت الصدفة رهانه، وربما، اعتبر بأن انتماءه الضئيل ما عاد يسمح له بتعاون الطلبة معه، لدرجة أنهم لم يعودوا يمدونه بما يطلب، والحقيقة، قال ذلك تحت فرضية الاعتبار والتصور، لكن الظن السيئ سرعان ما ابتعد وصار دخيلاً حينما اعتذرت منه طالبة بعد الامتحان، وأقسمت له بأنها لم تكن تملك إلا قلماً واحداً، فقال لها: لا يستوجب الأمر اعتذاراً بحق، فقد كنت أهم بالخروج لولا أنني رأيت قلم الأستاذ، أما الورقة، فقد وجدتها تحت الكرسي الذي جلست عليه، لكن ما أزعجني بصدق هو أثر حذاء نسائي وجدته مطبوعاً فيها، وأتعبتني إزاحته. ولأجل أن يشعرها بأن اعتذارها قد تم قبوله بكل ما تحمله روحه من حرية،

فقد دعاها لفنجان شاي، مع ساعتى حديث عن الحياة والمستقبل والحب. وبعد أيام من ذلك الامتحان، كانت درجته هي الأعلى، والتي لم يأبه لها مطلقا فيما لو كانت الأعلى أو أي درجة أخرى. في اللحظة التي كان يشاهد فيها المطر، سأله عامر عما يريحه من هذا المشهد الذي انتزعه من وجود المحاضرة بكل مداخلاتها، فقال له: إنها الحياة يا عامر، إنها جميلة، وربما نحن الآن في الجنة، فلا أظن مثل هذا الجمال الإلهي يكون بغير الجنة. وقبل انتهاء الدرس بدقيقتين أو أقل، قال لعامر بأنه لو أريد له أن يدخل الجنة، فما يرجوه هو أن تكون على هذا المقاس من الحياة: ممطرة بهدوء، ومناسبة بحيث يقدر أن يعيش أي أحد فيها ويتذوق منها كل منعش. أما عامر، فقد كان يقف على الدرجة العكسية القصوى منه، فبعد خروجه من قصص حب لم تبدأ بالأصل، قرر أن يفترض بالحب فلسفة تجعله يستمر، فكان يكتبه على شكل قصص، وفي أمله أن يكون كاتباً روائياً شهيراً، وهناك، عند ذلك الهدف، سيرى وفق افتراضاته بأن من رفضن عروض عشقه لهن، سيكبلهن الندم، ويشاهدن ذلك الشيخ الذي أحبهن، قد أحالهن إلى أشباح أيضاً، بل وغير مرئيات. وعلى الدرجة العكسية القصوى الأخرى، كان صديقه المغامر يشرب من خلاط عصيره من الأيام وفق ما يرغب، مرة بسكرزائد، ومرة بنكهة الأيام التي يحبها. ولأنه لم يكن يبحث كما عامر عن المقاييس في اختيار كل من يلتقيها، وعلى أساس قاعدة أزلية كان يؤمن بها: كل النساء جميلات. كان ينصح عامر بأن يتنازل قليلا عن المقاييس المغالية التي يضعها لقلبه، فالنجمة السينمائية لن ترى المعجب بها إلا واحدا من معجبين كثر، وربما لن تتعب عينها وتراه.

لكن عامراً، لم يؤمن بتلك المقولة، واعتبر بأن الجمال نظرية واحدة تخلق في داخل الإنسان، وتفرض كل طقوسها عليه، ولا يمكن له إلا أن يطيع فرائضها. فكان الاختلاف بينهما مصنفاً على أنه يجمع بينهما في أمور قراءة القصص والروايات، والنقاشات في أحوال البلاد السياسية، وشرب الشاي في الصباحات الباردة في نادي الجامعة. أما المختلف عليه، فقد كان عامر طالباً يريد أن ينجح بدروسه، ومهتماً بعامل الوقت الذي يحاول أن يعيد ترتيبه بعد كل فوضى حب ذات طرف واحد. فاختياراته للفتاة ذات الشعر الأشقر، كانت تحيل لباله إلى أغان قديمة، وكتابات مبعثرة، وأمل ضائع بين الظلام والبرد. حتى أتت اللحظة التي تكسرت فيها أرجل الأمل في إيقاع لو أصغر نجمة سينمائية من دنيا الحب لذلك الشاب، ليقرأ أخيراً بأن الجامعة هي مكان دراسة لا غير، وأن قصص الحب هنا مصيرها الذبول. كان يقول له ذلك في حديقة الجامعة المليئة بالعشاق، قرب نافورة عاطلة، وأنه قرر منذ اليوم الماضي قدماً نحو عوالم أخرى، ستحيل كل من عشقهن إلى أشباح ضائعة، تلاحقهن لعنة الندم حينما أخفقن في القرار ولم يقبلن به عاشقا وفيها لهن. لكن صوت طائر الكروان الذي كان ينتشر في صدى الحديقة أيقظ صديقه الحالم في ساحة العرضات، حينما ضربه دفء الشمس وأخذته لتلك الغفوة العميقة التي جعلته يعيد تفاصيل كان يتغذى بها، وأن عامراً، ذلك الصديق الأسمر، كان حلماً يشرح مبدأ الراحة التي ضاعت في ليلة من صنع الحرس الجمهوري، لم يقدر أحد فيها النوم، وكما الجميع الذين كانوا يسترقون دقائق النوم تحت دفء الشمس، ويحلمون بما كان أجمل في الحياة.

في كراج العلاوي، وجد تلك الصورة التي ثبتتها حالات البلاد الملهبة بالحروب، صورة الجنود المنتشرين في كل زوايا هذا المرأب، في المقاهي وهم يمضون بقتال الوقت بتمضية ساعات سرقوها من وقت الالتحاق، ولن يضيرهم لو تم إدخالهم في سجل الغائبين من أجل مشاهدة مقطع نستة الرقابة من فيلم أجنبي. كانوا يتواجدون في مطاعم الأكلات السريعة وهم يحاولون تثبيت آخر طعام سيتذوقونه من طعام خارج معسكراتهم. وفي دورات المياه إذ يفرغون مثنائاتهم من زوائد الشاي والماء. وجد تلك الصورة فيه، كجندي تم تصنيفه إداريا في معسكر التاجي، بعد ثلاثة ليال قضاها هناك، وهو في الرهط الأول، الفصل السابع في السرية الثالثة. وسيواصل إكمال تدريبه هنا، أما يوسف، صديقه العسكري الذي شاركه النومة الفرنسية، فقد تم نقله إلى مكان لم يعرفه، وبالطبع ضمن اختصاصه في الهندسة سيذهب به الجيش. في العلاوي، كان يتجول كضائع يدري بنفسه أنه ضائع، فقد وصل إلى الحافلات التي توصله إلى مدينته. لكنه لم يركب الأولى التي انطلقت، ثم بدأ المسافرون يركبون بالحافلة الثانية حتى انطلقت هي أيضا. لكنه يئس من أمر مجيء فتاته ليركبا معا وتراه في حالته الجديدة المزرية، حتى إن سائق الحافلة دعاه بأبي خليل وقال له أن ما ينتظره ليس أهم من أخذ

حمام ساخن وليفة جديدة يزيح بها قذارة المعسكر. فقال له: وكل ذلك لم يشعرني باليأس، فما تزال رواسب ذكريات هذا المرأب تثار كلما وقفت تحت مسقفاته. فالليالي التي أمضاها في قواطع المكان الجديد، المجردة من الأفرشة، والملل من الجلوس على الأرض في انتظار التنقلات والصنوف، إضافة إلى الليلة التي قصفت بها الطائرات الأمريكية أهدافا في بغداد كانت قريبة من المعسكر، فأمضى كل ساعاتها مع يوسف في موضع بعمق مترين، وهو أول موضع يجربه في حياته، كان عبارة على حفرة مجردة، اختبأ فيها بعد أمر جاء لكل الجنود بالانتشار، جلس مع يوسف يشاهدان السماء، مع حديث متقطع عن حالة جديدة يمران بها كجنديين حديثي التجربة. ثم شارك معهما المكان جندي كانت مواليدته قد طلبت توا، ومازال بعمر الثامنة عشر. في أثناء تجدد صوت مدفعية مضادات الطائرات، كان هو يراقب الجندي الصغير حينما كان يشاهد السماء، ويرى انفلاق قذائف المدفعية فيها، وحينما تساءل مع نفسه عن حال أمه الآن. قال له: إنها بحال أفضل منك. وهي أيضا تفكر بك الآن. كل هذه التفاصيل بدأ يدونها بعدما أخذ الحمام الذي اقترحه السائق، وأن أمامه مهمة أخرى من أجل الجيش ليوم الغد، وهي أغراض عليه تجهيزها في يومي إجازته، فاشترى البيرية، القبعة الجديدة التي يضعها جنود الحرس منذ يومهم الأول، كما استعار البلوزة العسكرية، التي تحمل اسم (الجيرسي) استعارها من جندي سابق قد تسرح قبل مدة قصيرة، فأراد إحراقها لكن والده الذي أعارها له، قال له بأن هذه البلوزة قد شاركت بحرب الثمانينيات، وتمتلك خبرة عسكرية أنقذته من هجومات كثيرة، وهي السبب في اجتياز ولده

مدة الجيش ذات الثلاثة أعوام بكل مخاطرها مع الضربات الجوية الأمريكية. حينما استلم البلوزة، أقسم بأنه سيحرقها حالما يأتي موعد التسريح، ويثبت للأب وابنه بأن بهذه البلوزة لعنة الحرب المتنقلة بين الأجيال، والسبيل الوحيد للتخلص من لعنة الحروب تلك هي إحراق كل الهدوم العسكرية التي يحتفظ بها من قاتلوا بكل الحروب. وكان آخر ما وضعه في حقيبته الجديدة التي وظفها لحمل الأمتعة بعالم الحرس هي موسي الحلاقة، ثم بدأ بالكتابة في الليلة التي لم يتبق منها غير ساعات قليلة فينهض من فراشه كي يلتحق مع دقة الساعة الثالثة صباحا، الالتحاق الجديد بمكانه، وقد وصل متأخرا قليلا فوجد الجنود في وضعية التجمع لغرض تلقي أول الأوامر. أما هو، فقد أمره أحد الضباط بتنظيف الممر الذي يصل قاطع الضباط إلى ساحة العرضات، كان ينظف المكان بسعفة نخيل متسببة لنصف ساعة، اتجه بعد ذلك إلى مجموعته من الجنود الذين كانوا يتلقون أوامر التدريب. كان ذلك الأسبوع قد أعاده إلى فكرة هيرقليطية كانت قد دوخته أيام ترفه الفكري، فالتغير، وعبور النهر مرة واحدة، لم يكن بالمهتم بها، ولم يكن الأمر يعنيه لو أنه لم يعبر النهر حتى، أو عبّره بقارب، أو قفز من فوقه قفزا، إذ كان الأمر مجرد تشغيل لبعض أماكن الرأس التي لم يستعملها الحب، فوقعت في شباك تبذيره للوقت فكرة التغير لدى هيرقليطس، لكنه لم يجد لها مكانا للاستخدام في حياته، وادخرها في قبو ذهنه لعل يوما سيأتي وتكون أداة قياس لشيء ما، وبالفعل، ففي ليلة كان عصير تعب التدريب يشربه الجنود فيها، أخرج من حقيبته المرأة كي يحلق ذقنه كما العادة في كل يوم، كان يجلس في المساء عند مكان الصنابير، حيث

يتواجد الجنود هناك للاغتسال أو لحلق أذقانهم أو بعض ملابسهم، كان يصبغ وجهه برغوة الصابون دون أي اهتمام، ثم يبدأ بسحب ماكينة الحلاقة على وجهه بدون مرآة، إلا تلك المرة، والتي لم تتكرر بعدها في كل مدة التدريب، حينما رأى وجهه في المرآة، ففزع وقال لجندي بقربه كان يغسل جوربيه: من هذا؟ وهو يشير على وجهه المطبوع في المرآة. فقال له الجندي بأن المرآة لا تعطي الحقيقة هنا، الحقيقة تبعد عن أسوار هذه المكان بخمسة عشر كيلومترا. كان الوجه الذي ظهر في تلك المرآة لرجل أثار تاريخ ولادته، ذكّره بخبر كان قد شاهده عن دولة أفريقية تمر بمجاعة. ولما فتش في قبو دماغه جيدا، ظهرت في أعلى رف من رفوفه ذاكرته قطعة صغيرة كان قد ألقاها هو في ذلك المكان النائي، ولما حصل عليها، وجد أنها كانت فكرة لهيرقليطس في التغير، وأن النهر الذي كان لا يحلوه في أن يعبره أو لا يعبره، قد جفت مياهه، وأن عليه انتظار أمطار الترف الفكري في حياته، كي يعبر ويؤمن بالتغير رغما عنه. والدليل القائم أمامه في المرآة قد زود بدعمه حالة أخرى مع الجندي الذي كان يغسل جوربيه، حينما ناداه جندي آخر كان يقف قرب باب القاطع قائلا له: إشراق، حينما تكمل من غسل جواريبك، اجلب لي من حقيبتك موسي حلاقة. فاستأذن إشراق صاحبه الذي كان يهرطق بكل قواه العقلية، والذي هشم المرآة وأقسم بكل مقدسات الكون، بأنه لن يرى نفسه في مرآة أخرى حتى نهاية التدريب، مع شتيمتين عملاقتين ومن النوع الفاحش، كان قد وجه واحدة منها لهيرقليطس، وأخرى لإشراق.

كانت شحة الحافلات في كراج العلاوي المعتادة كل يوم خميس، فيها من الفرصة أن يرى فتاته القادمة من الكلية، فانتظرها بين أعداد المسافرين الكثيرين وهو بصورته المزرية الجديدة التي كان قد شاهدها قبل يوم في المرأة. وقد حصل ذلك حينما رآها تقترب مع صديقة لها، وحاول في البداية ألا يجعلها تراه فاخفى بين الأجساد كي يتأملها جيدا. وجد أنها اعتادت على المشي بدونه، وكانت تبدو سعيدة، وتبدو أكثر سعادة حينما تبسم لأمر ما في الحديث مع صديقتها، فلم يضع مكانا لمناقشة أمر مفترض من عنده، ثم أعلن نفسه أمامها بصورة الجندي الذي أنهكه تدريب الأسبوع وأخذ من وزن جسده الرشيق، وزاد من حدة سمرة لونا جديدا ممرغا بتراب ساحة العروض. لكنها لما رآته فرشت على وجهها بسمة سحرته بها، كانت كالرسالة منها، وفي أنها لم ترمنه إلا المحب الذي قضت معه ثلاثة أعوام من الحب في مكان واحد، وسنة رابعة بغير مكان. وفي الحافلة التي حصل فيها على مقعدين حينما ركض كما المسافرين خلفها، أول ما سألتها عن الشكل الطارئ الذي حل محل شكله القديم، فكانت تضحك وتعرب عن عدم تصديقها بأنه سيقاوم الحياة العسكرية، لكنه قال لها بأن ما يجري معه هو كابوس في ليلة معتمة عاصفة، وما يجعله صامدا هو الأمل الذي يتجسد بوجودها. كانت تصغي بعدم اهتمام إلى سرد أوقاته في

العالم الجديد، إذ كل مرة تقطع سلسلة شجنه بأمر جديد بالجامعة. فرضخ لرغبتها بأن يتحدثنا عن الأشياء الجميلة، وليست عن أمور هي من اختصاص الرجال، خصوصاً الذين لا يبتون شكواهم للآخرين، فكان الوداع على اتفاق أن تراه بشكل أفضل مما كان، بل حتى إنها أخبرته بعدم رغبتها بأن تراه بصورة الجندي الذي أتعبته أول معركة، فنزل من الحافلة وهو يعلق حقيبته على كتفه وكل ما كان يريده هو تفسير كلامها عبر التدوين في يومياته التي توقف عنها بسبب التدريب لأسبوع كامل، ويحاول ألا ينسى بأن الأيام القليلة التي مضت لا بد من أرشفتها بأدق تفاصيلها كي يفهم فيما بعد مدى قوتها لدرجة أن حب الأعوام الطويلة لم يتمكن من مواجهتها، وجعل من الفتاة التي تاهت خطواتها إلا معه بأن تقول له ما تقول. وفي الليل، حيث لا كهرباء كالمعتاد، بدأ يكتب عن مغفل ما يزال في البداية، أية بداية، فتوقف عند هذه الكلمة واستغرق بضوء الشمعة. ولم يستطع كتابة أي كلمة أخرى غير كلمة بداية، وانتظر حتى تنتهي الشمعة من بث ضوءها، كي يدرك كما قال حينما بدأ يتحدث معه نفسه في الظلام، بأنه لم يكن يعرف ما البداية، تساءل إن كان الظلام يعني البداية، أم الضوء الذي كان، فقد اختلطت عليه أمور قوانين دولة ترسل الخريجين والشباب إلى العسكرية في الوقت الذي تريد. وتعددهم لحرب تعتقد أنها ستقع في أي وقت، وتتجاهل ما يطمحون له، وما يرغبون أن يعيشوه. قال وهو يتلمس كتاباً موضوعاً على طاولته بأنه رغم تدمره المستمر، وضجره عالي المستوى، ما يزال يشعر بكل ما كان يعيشه، بدليل إن ما يتلمسه الآن هو كتاب قصص لعبد الستار ناصر، واسمه السفر إلى الحب. فبرغم

الأسبوع المضني الذي كان ينهض بأيامه من الفجر، ويتلقى التدريب المتعب، والأكل الشحيح الذي لم يكن فيه حتى فائض كي يذهب أي جندي إلى المرحاض فيتخلص منه، لكنه لم يفقد الشعور، فأشعل بولاعته شمعة أخرى، وبدأ يكتب كل أسبوعه الفائت وحتى وداعه لحبيبته، لكنه في النهاية، شطب بقلمه كل تفاصيل اللقاء الذي حصل في العلاوي، وقال في آخر ما كتب: وجدت العلاوي مزدحمة بالمسافرين، لكن أي أحد منهم لم يرني. فاختفى ضوء الشمعة بعد مجيء الكهرباء، وشرع بالاستماع للراديو الذي عشق فيه كل بلدان الإذاعات التي يستمع لها، حتى إنه كان يرسل إذاعة أبو ظبي، في واحد من برامجها الذي يبث في العاشرة ليلا، وأحب مقدمة البرنامج ذات الصوت الشبيهة بآلة كمان، ورغم أنه كان كمن يذهب بعيدا حتى بالكاد يسمعه، ثم يعود بعذوبته بعد أن يعيد البث جودته. أما المفاجأة التي سرته وحاولت تخطيه تعاسته، فقد كانت من تلك المديعة الإماراتية نفسها، حينما تساءلت عن صديق للبرنامج قد طال غيابه، وإنها لم تعد تقرأ رسائله وخواطر الحب التي يرافقها معها، فقال لها المذيع مداعبا بأن الصديق هو من العراق الشقيق، وأن خدمة البريد الإلكتروني في هذه البلاد ليست متوفرة، أما الرسائل الورقية فهي تأخذ وقتا كي تصل، فتمنيا له أن يكون بخير، مع أغنية مهداة له كانت لنوال الكويتية، المغنية ذات الشبه القريب لحبيبته، والتي أحب كل أغانياتها لأجل حبه، لكنه فيما بعد اكتشف بأن في هذه المغنية روح مطلقة لا تنتهي، فكتب عنها في رسالة للإذاعة المفضلة لديه بأن الغناء يجب أن يقاس على مقياس اسمه: صوت نوال. فأثار بذلك نقاشا حادا مع المتصلين

المحليين للإذاعة، والذي كان يستمع له لا أكثر، فقال عنه أحدهم بأن حقيقة المرسل هي أنه يحب نوال، ويتمنى له أن يجمعهما معا بيوم ما. وفي الحقيقة، برغم الضحك المتواصل للمذيع والمذيع على ملاحظة المتصل، فقد كان يقول وهو تحت غطاءه: الموت أقرب، الموت أقرب. وبعد نصف ساعة، رحل الى عالم النوم كعادته وهو يستمع إلى الراديو، تاركا ضوء مصباح غرفته لمشيئة الكهرباء، وتشويش جهاز الراديو الذي يأخذ بالصوت ويعيده كأمواج بحر عند الشاطئ. وتاركا أوراق يومياته على الطاولة، كانت من بينها ورقة فيها سطور كثيرة كان قد شطب عليها، ولم يعد بالإمكان محاولة قراءتها.

تذكر احدهم قد قال له بأن في الجيش فرصة كي يرى الكثير من مدن العراق، الفرصة الإجبارية التي ترسل بالجندي لأي مكان تنتقل فيه وحدته العسكرية، فكان توقعه هو انتقاله إلى الوحدة التي سينسب إليها بعد انتهاء فترة تدريبه البالغة ستين يوما، ويعمل فيها بصفة كاتب، وهي أفضل صنف قياسا ببقية الصنوف. لكن توقعه كان قد تخطى مكانا آخر لم يكن في ذهن أي ضابط أو عريف في المعسكر، فالحبانية هي الاكتشاف الآخر الجديد الذي سيراه في أمر نقله جاء، وتنفيذه فورا بعد تدريب لنصف شهر فقط كان قد قضى مدته في التاجي. أما المكان الجديد والذي يضيع في منتصف صحراء لا علامة للحياة فيها، فقد كان يرى أرضه ممتدة حد التقائها بالأفق، وتخرج الشمس من بطنها لتغيب في البحيرة الزرقاء البعيدة عن المعسكر. كانت الليلة الأولى مظلمة في كل شيء، حتى القواطع الموجودة فيها والتي شبهها جندي يسكن في الجنوب بأنها تشبه سجن (نكرة السلطان)، فاستضاء الجنود فيها بأضواء الشموع لحين إيصال الكهرباء لها. كان الماء يأتي العاشرة صباحا بصهرج يفرغ حملته في خزانات حديدية لا تكفي إلا ساعة واحدة، وكان الجنود يملأون كل ما يمكن أت يحتوي المياه لغرض إكمال اليوم، أما في الصباح، فقد اعتاد الجميع الذهاب لساحة العروض بدون أن يضعوا قطرة

ماء على وجوههم حتى مجيء الصهريج. والعزاء الوحيد الذي كان يغذي به روحه هو المدة المتبقية من فترة التدريب المتقلبة بالأحوال والأماكن، ووضع شهرمارس هدفا له في انتهاء كل شيء والذهاب لوحده حيث سيستقر فيها إلى يوم تسرحه، أما هذا المكان المتيبس، فلم يكن التدريب الوحيد فيه المستنزف الذي يحيله شيئا فشيئا إلى كائن بلا ملامح، بل العمل المضني في نقل المعدات وأشغال البناء، حتى إن فصيله أسمته بقية الفصائل بمجموعة المصريين، لكثير ما كان يقع عليه من أعمال شاقة. وفي الظهيرة، كان كل الجنود يرمون بأجسادهم من شدة التعب على الأسرة فيغرقون في نوم شبيه بالموت، غير أنه كان يريح قدميه المتعبتين من فرط العمل والتدريب برفعهما إلى الأعلى وإسنادهما بالحائط، ثم يخرج رواية السكرية التي وجدها على طاولته حينما استيقظ صباحا في غرفته مع بعض كتب وأوراق يوميات قد كتبها، فقرر بعد أن ألحق تلك اليوميات بأخواتها ثم دسها بين كتبه في المكتبة أن يأخذ الرواية معه كي يريها المكان، ويرى نجيب محفوظ الحياة التي لا يمكن أن توصف بالكتابة، بل بالشعور. كانت فكرة أخذ ذلك الكتاب ممتازة بالنسبة له، فالتهرب أمر وجدده جيدا من الواقع الذي يعيشه. وتطورت الفكرة إلى أخذ أكثر من كتاب بعد ذلك، حتى أن الجنود كانوا يتساءلون فيما بينهم إن كان هويعاني من عقدة، لكن أولياته معهم منذ معسكر الحلة كانت تشير إلى أنه ذو روح مرنة، وكان دائما ينظر إلى السماء فيخبرهم بمشاهدة سرب من الطيور لم يره من قبل. وفي مرة من استراحات معسكر التاجي، كان جندي مستلق على جانبه على الأرض ويقتلع بتسلية بعض النباتات الصغيرة، فتساءل إن كان الإنسان

مخيرا أم مسيرا، فلم يحفز ذلك السؤال الجنود الباقين والمستلقين مثله مثلما شعره وبتحفيز غريب، فسبقه أحدهم بالحديث وقال بأن الإنسان مخير، لكن جنديا كان يعشق شرب العرق ويمر بحالة منفعلة في المعسكر إزاء عدم وجود الشرب قال له: فلماذا لا تخرج الآن وتجلب لنا بعض زجاجات البيرة؟ ثم أكمل كمجيب بأن الإنسان مسير، بل وابن مسيرو من جد مسير. كانت الإجابة الثالثة فريدة بنظر الجميع، فالقراءة قد زينت كل ما تعرض للصدا في ذهنه، وأبعدت بيوت عناكب كان قد حيكت بين الزوايا التي كانت مضاءة أيام الكلية، هكذا قال لجندي أعلن إعجابه حينما سأله إن كان هذا الرد هو الحل الأخير وإلى النهاية. والواقع أنه كان قد سمعها من أستاذ في الجامعة، وكانت أيضا بالنسبة له منبع الارتياح ونتيجة نهائية للسؤال المكرر كثيرا، فقد قال لهم إن الإنسان مسير في ما لا يعلم ومخير فيما يعلم. وبرغم أن الجواب كان قديما في طرحه، والكثير قد قاله، لكن المعرفة اتضحت له بأنها تدور حول الشمس وكما الكرة الأرضية، وهناك من يحظى بها وهناك من يتخلف فتبتعد حتى تعود مرة أخرى. كان الجنود في قواطع المكان الجديد مستغربين من الطاقة التي تكمن فيه، هو يئن أيضا، لكنه شخص بلا قيلولة، وهو آخر شخص يطفئ آخر شمعة في كل ليلة، وحين تم إيصال الكهرباء، اقترح أحدهم بوضع المصباح الوحيد لقاعة طولها خمسة عشر متر فوق سرير الجندي الذي يقرأ طول الوقت، لكن التيار كان ضعيفا بمد الطاقة التي تضيء المصباح بصحة تامة، فكان الشحوب في ضوئه مبعث قلق على من تحته، مما يضطره لإطفائه والتأمل عبر النافذة الصدئة، والمجردة من الزجاج إلى الأضواء البعيدة لبحيرة الحبانية، وإلى جهة

الغرب حيث بالكاد ترى أضواء لمنازل مدينة لا يعرفها. أما في النهار، فقد كانوا يذهبون بهم إلى عمق أكثر صحراوية لتعلم الرمي بالبندقية، واستعمال الرمانات اليدوية المتفجرة. كان ما يتمنى قوله أنه لا يريد أن يتعرف على هذه الأسلحة، فقد كتب في إجازته بنهاية الأسبوع بأنه لا يرغب الإمساك بأي سلاح، فلما لاحظ أحد الضباط بأنه كان يرمي دون تصويب، استدعى أحد العرفاء وسأله إن كان قد علم الفصيل التصويب باستخدام الفرضة والشعيرة، فأجاب العريف بتأكيد عسكري حازم بأنه درب الجميع على ذلك، لكن الضابط عاقبه بالزحف أمام الجنود بسببه، ثم اقترب منه وهمس بأذنه: الكليات لا تخرج حميرا، فلماذا أنت هنا! لكنه لم يجبه، وسدد رصاصات التدريب وفق قانون التصويب وهو مستلق على بطنه، ولم يصب بأي رصاصة الهدف الشاخص المبتعد عنه لمائة متر. بعد إكمال الرمي، يعود الجميع إلى القواطع وقد حل الليل، فكان يتأمل صورة الحياة المجهولة في الظلام، يسترشد ومن معه بأضواء السيارات العسكرية التي تقل الضباط، فكان يصفها بأنها حياة لا تتنفس، ومليئة بالمخلوقات الغريبة، ففي خبر حمله جندي ذهب في دهليز الظلام وعلى مسافة لم تكن بالبعيدة عن القواطع، ذهب ليقضي حاجته هناك، قال بأنه سمع صوت دبيب على الأرض، كان ديببا سريعا لجسد أثقل من الإنسان، لم يتمكن من رؤية شيء منه، كان يقترب حتى اضطر إلى الهروب دون أن يكمل ما جاء إليه، فتم تنبيه الجميع بالألا يبتعدوا أكثر من مدى أضواء المصابيح، ولم يعرف حتى انتهاء مدة التدريب ما هذا المخلوق الغريب، فجرب هو الذهاب لنفس السبب الذي كان يفعله ذلك

الجندي، وكان الأمر حقيقة، لكن الدبيب كان أسرع وأخف من جسد إنسان، وبطبيعة الأمر، كان الخوف هو الدافع الوحيد للهرب، لكنه رأى تحت مدى الأضواء جسدا كان بحجم القط، لكنه لم يكن متأكدا مما كان يراه، فلم يخبر أحدا بالأمر خشية من عقوبة عدم تنفيذ الأوامر. وتأكد له بأن هذا المكان الموحش فيه حياة صامتة حد الجنون، ومجيء المعسكر كله إليه قد تسبب بفوضى للسكان الأصليين، وفي غروب اليوم الرابع من التحاقه، رأى قرب السياج المشبك بالأسلاك رجلا يضع على كتفيه معطفا يصل إلى ركبتيه، كان كتمثال منحوت من الصخر، فظل يتابعه من خلال النافذة حتى بعد مغيب الشمس، كان يراه يتلاشى مع ازدياد الظلام، فلم يستطع في تلك الليلة أن يقرأ شيئا، ونام دون أن يطفى الضوء الشاحب.

قد التقيا بشكليهما الجديد في الجامعة، بعدما اتفقا بعد انتهاء الاستعراض العسكري والذي كان هو الخاتمة الحقيقية لمدة التدريب، ففي الليلة التي سبقت الاستعراض، كانت نسبة الارتفاع لا بأس بها في روحه بعد أن أتم حقبة اتسخ فيها كثيرا، وأغلقت جميع مسامات جسده بكل ملوثات ما يزعجه. كان قد أقيم لهم حفل تحت مقاييس واقع الجيش المتشنجة في الليلة التي سبقت إعلان نهاية التدريب. وفي الصحراء المنبسطة تحت حرارة شمس مائس، تم جمع كل سرايا المعسكر المنعزلة عن بعضها، فكانت الطائرات العسكرية المقاتلة التي سمح بها للطيران فقط في أماكن محددة من العراق، كانت تمر فوق الجميع بسرعة بطيئة، وبعد مرور ساعات على الصباح الذي اتجهت فيه كل السرايا نحو الساحة المقفرة التي سيتم فيها العرض أمام قيادات من الحرس الجمهوري، أعلن عن نهاية الدورة التدريبية، وفي الاستراحة التي أعطيت للجميع، شرع بالبحث عن عامر الموجود بسرية غير سرية، ومن بين هبات التراب التي كانت تغرق من تمر فيه، رأى صديقه جالسا في صورة أرجعته بالزمن إلى الوراء قليلا، وكان عبارة عن رجل من تراب، شعره الأسود وحاجبيه ورموش عينيه كانوا قد اختفوا، فاقترب منه ونادى باسمه، مع احتضان لمشتاقين كان بودهما البكاء على الطالبين اللذين ماتا بجمه

الضباع. فاتفقا على يوم محدد أن يلتقيا فيه في الكلية. وفي ذلك المكان -في الكلية- كان عامر يبحث كثيرا عن شيء منه قد فقدته ونسي مكانه، كان يتجول بكل تفاصيل ذكراه. وفي وده لو أن الأيام ترجع بكل أمانها التي وئدت، وكل شظاياها البسيطة التي كان يتجاهلها وهو ينعم بحريته. فأشار لصديقه إلى مكان شرب الشاي، ثم جلس بمكانه الذي اختاره عن عمد كي يرصد التي أحبها وهي تمر، لكنها لم تعد تمر، أو ربما هو لم يعد يجلس بعد هذه المرة، فلا يرى سوى أطياف شابة تنافس بشعرها الشمس. قال: الخسارة كبيرة يا صديقي، المؤلم في الأمر أن يرانا الآخرون بشكلنا المخزي هذا وكأننا لم نكن هنا بالأصل. فأجابه بمداعبة لم يكن أحد يفهمها غير عامر بأن خريج الكلية حينما يدخل الجيش يتحول إلى مخلوق حقير. وقال لعامر بأنه حقير حتى في نظره، بالرغم من كونه هو حقير أيضا. لكن عامر أخرج من بين كومات الأسى ضحكة مستسلمة لرياح واقعه العاتية بأنه سيعود يوما إلى هنا وقد حمل راية الانتصار، وأنه ما يزال مصرا على تحويل من صددنه إلى أشباح، والزمن هو الكفيل الوحيد في الأمر. وبذكر الزمن، شعر الآخر بأنه في لحظة وداع مدوية وعظيمة، فحينما ذكر عامر مفردة الزمن، سمع صوت الوداع بكل مكان حينما كان كل الطلاب من دورته هنا، وقد فرقت بهم الأقدار كل لوجهته، وسمع صوت وداع في كل زاوية قضى الوقت فيها، في نادي الجامعة وهما يضربان دروسهما بعرض حائط الحب الكبير، وفي المكتبة حينما كان يستعير بهوية عضويته كتبها لها. وكعامر، لم يجدها في أماكن بحثه عنها، وأن الدراسة في أواخر مارس قد انتهت، وفتاته قد تخرجت لتصبح في محكمة واقع المجتمع

الذي سيحيلها إلى عروسة تمتلك شهادة جامعية، ولديها الفرصة العظيمة بأن تكون في وظيفة جيدة، وهناك سيكون العرسان على قدر ما تريد من مقاييس، فترفض ما ترفضه وتقبل ربما غيره، تذكر ما تذكره يوم رآها في قد أصبحت تسير بدونه بكل ثقة، مع أنه كان يريد الاعتراف لها بأنه مثلها في هذا الأمر، لكنه أجل الاعتراف لموعد طارت منه كل آماني الطيش في زمن أينع فيه الحب، فحلت في تلك الرحلة مع عامر كوابيس يقظة تلبس ملابس العسكرية، وتضع أيضا مثلثات حمراء، حتى قال لعامر بأن الحب لا يختلف عن المسكن بشيء، متى ما ينتهي مفعوله عاد الألم من جديد، فقال له عامر بأنه لا يعرف من الحب سوى أنه خسارة الضفة التي هو فيها، فأجابه الآخر بأن في ضفته لا جديد فيها سوى مغامرة التجربة. وفي نهاية اللقاء، ودع الصديقان الأماكن كلها، وأنهما وجودهما بآخر قدحي شاي ثم هما بالرحيل، حيث بدءا يتحدثان عن القادم من أيام الجيش، فالإجازة ذات الثمانية أيام ستنتهي بهما في الحبانية لأخر مرة كي يستلما كتباً موجهة للأماكن التي سيكملان فيها الخدمة، كان عامر قد علم بأن وحدته في رئاسة أركان الحرس الجمهوري في بغداد، وهي إدارة بعيدة كل البعد عن واقع الجيش بسلاحه وآلياته ووحداته الضائعة في كل مكان في البلاد. أما هو، فقد كان مكانه الجديد في وحدة للدفاع الجوي، سيعمل هناك في مكتب القلم، وهو مكان الإدارة التي تستقبل صنفه، وحينما استلم أمر نقلته الجديد مع بقية الجنود، كان كما الجنود يلعنون المكان ويبصقون في أرضه الصحراوية التي أذاقتهم حياتها، وبرغم عدم رضاه بما كان يفعله، وأن نظرة الاحتقار للمكان ليس للمكان ذنب فيها، كتب في يومياته في

ليلة ذلك اليوم بأن ثمة من كان ينظر إليه حينما التفت آخر مرة ليلقي نظرة الاحتقار هناك، وأن شعورا ينبئه بعودة أخرى كي يتعذب لوحده في قبط الصحراء. وما حدث، أنه في يوم التحاقه إلى وحدة الدفاع الجوي، كان قد وجد جنديا قد أمسك به الانضباط العسكري لهروبه، وقد أرسله لهذه الوحدة كي تتم محاكمته عن مدة هروبه، لكن ما اكتشفته إدارة الوحدة بأن هذا الجندي المريض بكبده، قد تم تنسيبه إليها بالخطأ، وعليها تسليمه إلى إدارة معسكر التاجي المنقولة إلى الحبانية، ولم يكن أحد يعرف المكان الجديد له إلا الجندي الجديد، فكان تكليفه الأول من نوعه هو تسليم الجندي مقابل إجازة لأربعة أيام، فتذكر الحلم الذي رأى فيه ذلك الشخص الواقف قرب سياج المعسكر ذا المعطف الطويل، لكنه هذه المرة كان يقربه، ودون أن يرى شيئا من وجهه، قال بأن تلك الصحراء تدينه اعتذارا، وبيوم ما سيعود صاغرا ويعلن أسفه إليها، وهناك حينما وصل مع الجندي الهارب، كان لهيب المكان لا تجد به غير رحلة منه بلارجوع، فأكمل إجراء تسليمه وفي عينيه دموع يحاول حبسها، حتى إن جنديا من قلم المعسكر سألها عما بعينه، فلم يستطع إكمال قوله بأنها مصابة بالحساسية ليخرج نحو برميل ماء قذر أدخل رأسه فيه وبدأ بالبكاء، ثم بدأ شعور مريح يدب بروحه، حتى إنه عاد إلى القلم وكأنه لم يكن الذي كان قبل دقائق، فاستلم ورقة إثبات التسليم، ومن نفس المكان الذي أطلق بصقته، وقف ونزع بيريته وقال: عذرا أيتها الصحراء.

إلى عوالم أخرى

في أول مرة تطأ قدماه مدينة الصويرة جنوباً عن بغداد بخمسين كيلومتراً، اتجه بعدما وصف له جندي الانضباط الواقف في نقطة تفتيش مكان وحدته الجديدة حينما أشار بإصبعه إلى مكان لا علامة حياة عسكرية فيه، وفي مدخله لافتة بحجم ثلاثة أمتار تصرح عن معمل لعلف الدواجن، وحينما اقترب من البوابة رأى بالفعل بضعة جنود، كان الوقت حينها العاشرة صباحاً، فأخرج من جيب قميص بذلته الرومانية التي أعطاها له جندي سابق من الحرب العراقية الإيرانية، كانت مازال لم تستخدم أبداً، ولم تر المعركة الحقيقية التي كان هوفها يوم انتهت وهو صبي في الصف السادس الابتدائي. ولزهوها استمر في لبسها ولم يبدلها كل خدمته رغم أنها كانت من التجهيزات الشتوية. حينما قرأ أول جندي التقى به الكتاب، أرشده إلى مكان المكاتب، وهناك حيث ستم إجراءات التعارف في الوحدة الأخيرة من حياته العسكرية، وبعد نصف ساعة تمت مفاتحته بأخذ الجندي الهارب والمنسوب إلى هنا بالخطأ مقابل أربعة أيام إجازة، ثم عاد بعد تلك الأيام كي يكمل كبداية له التصور الحقيقي للمكان الجديد، المليئة مسقفاته الحديدية بالطيور التي تذرف بذروقها كل جندي يمر من تحتها. كان المعمل قد توقف عن العمل بسبب استيلاء الوحدة عليه لانتخاذه كمكان بديل تختفي فيه من استهداف

الطائرات الأمريكية، وما تزال فيه بعض من شحنات الحبوب التي لم تدخل في التصنيع من أجل طعام الدواجن، فكانت الطيور تعتاش على تلك الحبوب حتى اتخذت منه هي أيضا مكان للعيش فيه، أما مكانه الواقع عند مفترق طرق بين بغداد والجنوب، فقد كان مكانا ملائما للتأمل في الحافلات التي كانت تذهب من بغداد حيث عمق البلاد الجنوبي، أو القادمة منه نحو أضواء العاصمة، ذلك من ناحيته الأمامية، أما خلف المعمل المحاط بسور مشبك، فكانت توجد قرية بدائية، كل بيوتها من الطين، يعمل جميع سكانها بالمزارع التي تحيط الصورة، الحكومية منها والأهلية. ومن جهة الشمال، كانت تجاور المعمل دور متشابهة البناء، لموظفي المعمل الذين لم يعودوا يعملون فيه، كان يريد إزاحة شعور الاستغراب ولو بالانفجار بكاءً، فلم يرفضه وحيدا أكثر من هذه المرة من قبل، برغم من أن جماعته من الجنود في المكاتب قد قالوا له بأن الوحدة عملها هادئ، وسيمضي الوقت يسيرا حتى النهاية. لكنه لم يكن يريد إلا مضي بعض الوقت، كي يحاول ترتيب صورة الحال الجديدة ثم يرى نفسه فيها، وأول الأوامر التي تلقاها هو الواجب، إذ عليه استلام بندقية وحراسة البوابة الرئيسية التي حينما دخل منها إلى المعمل لم يكن أحد موجودا عندها بالأصل، فأنار بذلك ملاحظات الضباط في تسريب المكان، فاستجد أمر بحراسة البوابة وفق مناوبة بين الجنود، كان أول واجب استمله مع مغيب الشمس، به تأمل جيدا كل المسافرين الجالسين في حافلاتهم والمطيلين بأنظارهم عبر النوافذ، كان يرى جنودا مثله، وشابات كن يبعثن فيه الحياة رغم حالة الاستغراب التي تفتك به، وكان يرى في شكله أحمد زكي في فيلم البريء، إذ رأى

أول مرة أمر الوحدة بملايس رياضية وهو يأمر الضباط بالتجمع للعب كرة الطائرة، كان طويلا وذا جسد رياضي مفعم بالعافية، أبيض البشرة مع صلعة لامعة في مقدمة رأسه، ومما كان فيه مبهرا في تلك المرة الأولى، أنه تنبه لوجود الجندي الجديد، وناداه للعب، إلا أن الجندي اعتبر الأمر بالرغبة أو بعدمها فاعتذر لأنه لا يعرف في هذه اللعبة شيئا، فأوماً له الأمر برأسه كإشارة بأن ينصرف إلى مكانه، وبعد انتهاء الواجب قال له رئيس العريفين بأن كل ما يقوله الأمر هنا هو أمر لا نقاش فيه، وعلى الجميع تنفيذه، قال له: اعتذارك الأبله قلبه حينما تدعوك حبيبتك في الجامعة لشرب العصير، أما هنا فتأخذ التحية أولا للأمر، ثم تجب بحاضر سيدي، ولكونك مستجد فعليك تعلم بعض الدروس كي تكون جنديا مالحا فيك مذاق المسؤولية، وليس الشاب المرهف القادم من الجامعة ورخاوتها. في تلك اللحظات، كان يحاول أن يستجمع كل ما تبدد منه كي لا يبكي، فلم يقل شيئا سوى أنه فهم الدرس، ولولا أن رئيس العريفين ذاك، القادم من الديوانية بوجهه المليء بتعرجات الجبهات على مر تاريخ الحروب، والذي لا يذهب لأهله إلا كل ستين يوما، بالرغم من أن إجازته عشرة أيام لكل عشرة أيام يقضها هنا، لكنه كان دائما يقول: أخشى الذهاب إلى البيت فيصبح الصبح وأنا ميت هناك، كل ما أريده هو أن يصحو الجميع في هذه الوحدة ويجدونني قد رحلت عن العالم وأنا مغطى بفراش الجيش، وفي بطني آخر أرزاق الجيش. لكنه، بعدما علم بتعليمات تتحدث عن أعمار بلغت السن القانونية وهم في الخدمة العسكرية، عليهم تقديم أوراقهم وفيها مجمل خدماتهم التي قضوها في الجيش، وعليهم طلب التقاعد أو تتم إحالتهم لذلك.

قال للأمر الذي كان معه منذ كان يحمل نجمة واحدة على كتفه وهو الآن برتبة عميد، بأن يسمح له بعد التقاعد بالمجيء لومرة في الأسبوع كي يحضر التعداد الصباحي، وفي الصباح الأول لإحالاته على التقاعد، وجدوه على الفراش بدون أي حراك، إلا عينيه فقد كانتا تتقلبان إلى كل الوجوه، ثم مات بعد نقله إلى المشفى بساعات قليلة. كان ذلك قد حصل بعد شهر من الالتحاق الأول الذي رآه فيه، وتلقى الدرس الأول من رئيس العريفين عبيد، حينما أراد الانفجار أمامه بكاءً، لولا أنه أمره بالانصراف، فذهب تحت واحدة من المسقفات وحيدا دون أن يتعرف بأحد الجنود. لكنه كان يسجل عبر ذاكرته كل تفصيلة غريبة تتحطم فيها روحه في المكان الذي تنوح فيه الحمام ليلا ونهار، ويراهما حينما تجتمع فوق أحد كي تذرف ذروقها مرة واحدة كأنما ثمة اتفاق حول أحد بذلك، فكتب ما قاله الجندي الموصلي كناصر له، وفي أن كل ما يقال هنا، لا يجب اعتباره رأس مال حقيقي، وسيفهم بمرور الأيام بأنه هو أيضا واحدة من السلالة التي تعتاش على غيرها، كما غيره يعتاش عليه، وعليه أن يقسّي جيدا أحاسيسه مع محيطه هذا، فهنا، الكل عند باب النظام يخلعون ما نشئوا عليه، ثم يلبسون البذلة المجردة من الحياة، بكل ما فيها سمو وشاعرية وإنسانية.

آخر ما كان يتوقعه هو أن يرى في مكانه هذا، في عالم الحمام وحبوب الذرة والشعير، أن يرى فتاة اخترقت حاجز صوت واقعه وأحدثت دويا تقبلته أذناه المصابة بصمم سمع صوت امرأة منذ زمن، فأعادت بذاكرته حينما اتكأ على كومة أكياس الحبوب بعدما غادرته الفتاة التي استطاعت إحراق نصف ساعة بقوة ناعمة مدمرة، وأحالت منطق الزمن بمعادلات كونية جديدة، وكأنها تحمل عصا سحرية تحيل الساعات الطوال إلى كائنات متقزمة لا يمكن رؤيتها، أعادته إلى نضال، صديقته في الكلية التي كانت تطلق النظريات المثالية عن جماعتها الغارقين بحكايا البنات، قالت له: أراك لا يمكن أن تواصل أيامك بدون امرأة، ولا أدري إن كان ذلك عيب فيك أم شعور بالحياة أكثر من الغير. لكنه حينها لم يضع نظريتها إزاءه تحت مجهر تفحصه، كي لا يتقاطع ما تقوله مع نشوته المطلقة التي يدمنها. فضحك كمحفوظ وفي رغبته أن يرمي ببندقية الواجب ألف إطلاق وإطلاق لأجل نافذة الحياة التي وجدها بزنزانته، وعاش على أمل الغد في رؤيتها بعدما أخذ منها موعد مجيئها وفي ذلك فرصة أخرى لاغتيال الزمن الخائن وإخفائه بين طيات الانتظار. فقد كان اليوم الذي يتمثل عدد ساعاته بمائة، محجما وصغيرا، ووجد اختراع أن يكون الزمن جميلا لا في رؤية وجهها، بل قضاء الليل والنهار في التأمل في وجهها الضاحك، فيكون

استنزاف الوقت بطريقة دبلوماسية. ثم بدأ بعد ثلاثة مرات من لقاءها بإعطائها موعد بداية واجبه حتى نهايته. كانت فتاة في العشرين من عمرها، وقد أكملت الإعدادية بفرعها الأدبي، تحب الشعر، بيضاء متوسطة الطول رشيقة، تقيم مع أهلها القادمين من بغداد إلى هنا لتمضية العطلة في أرضهم الزراعية، أما منزلها المختبئ بين النخيل، فلم يكن يرى منه إلا بضعة أمتار من سياج دوره العلوي، والذي بسبب لونه أحب أي شيء لونه أصفر، وفي الليل، كان سعف النخيل بتمايله يغطي ثم يظهر أضواء مصباحين في ذلك المنزل، مما كان يزيد من دفقة احتياجه لها، وأقسم أنه في إجازته القدوم إلى هنا بملابس المدنية الجميلة، ويرى أن ذلك الجندي الوحيد المتعطش لأي قطرة حياة، هو في الحقيقة المتحدث الرسمي للحب، وسيكون بيوم ما مدرسا لمادة الحب في الكلية، لكنها لم تكن تصدق ما يقوله حتى بعدما أعطاها موعد حضوره، ولم تصدق عينها عندما رآته في موعدها، بقميص كان قد اشتراه بعد دراسات عن البيئة التي سيدخلها، فقد لاحظ أن اللون الأحمر كان السائد في ملابس المجتمع الريفي بكل أماكن البلاد، مع بضعة ألوان براقَة أيضا كانت محببة لذلك المجتمع، رآته وهو يجتاز أرضا كانت للتوقد حُرثت، فبدأ بعينها ساحرا يحاول جرها إلى عوالم خيالية، حتى إنها قالت: حتى اللحظة لم أدرك بأنك حقيقة أم إن خيالي المعتوه يحاول صنعك، لكنك على أية حال ستختفي، فالأشياء الجميلة كل شيء يكون فيها مسرعا. كانت تشاهده حينما ودعها وهو يتعثر في الأرض المحروثة، ثم رآته يركض هاربا من مجموعة كلاب كانت غافية بين مروز تلك الأرض، فكانت مغرورة العينين وهي تشاهد فيه نشاطا لم يكن

بنشاط العاشق الناعس الذي كان قمرها قبل قليل. أما عنه، فقد كتب كل ما قالته وما قاله بيومياته المتحولة ببوصلتها إلى جهة خامسة من أزمنته، كان يكتب كل ليلة وبكل حماس عن التبدل الحاصل، وعن الإجازة التي صارت رتيبة، فكان ينظر كل يوم إلى نموذجها ذات السبعة أيام، ولا يتذمر إلا بحرارة الصيف أمام سعيد المصري حينما كان يقضي الصباحات عنده، أما سعيد، فكان يبدي ارتياحه إزاء الجندي المنزعج، ويذكره بنصيحته بحب المكان، أما الحقيقة، فلم يخبر سعيدا بها، كما أنه أيضا، لم يشرح له أسباب تقبله واقع عسكريته، ولم يخبره بقصة الفتاة التي أتت تحمل دلوا وتستأذن لأخذ الماء الصالح للشرب من الصنبور الموجود قرب باب الوحدة، فأصبحت الحظ الذي غير مجرى الأمور، وصارت له المسكن الجيد لأوجاع الشعور، وفي الليلة الأخيرة من إجازته، كتب بأنه مستعد لأي جهة، وبإمكانه أن يكون المزارع الذي بإمكانه زراعة الورد في كل جهات الأرض. أخذ استغراقه طويلة في كتبه، لأجل أن يختار لها كتابا سميده لها حينما يلتحق، مع أسطر أسفل العنوان كانت بخط يده لأجل أن يكون حاضرا بروحه معها دوما، كان قد كتب عن الحب والحياة، وأنه الشخص الذي شارف على النهاية، غير أن وقتا حاسما خرج من بين الحطام وأعاد له تنظيم ما يحدث له من فوضى، فأرسل له المقاتلة الجميلة. ثم وضع الكتاب مع كتب أخرى ليقراها أثناء تمضيته لأربعة عشر يوما قادمة في حقيبته الحبرية اللون، مع إعادة لذاكرة جديدة كانت تستعرض له اللقاءات الأولى، وكيف إن أحد الضباط أراد منعها واخبرها بعدم التواجد مرة أخرى عند البوابة، لكنه توسل الضابط فيما بعد بأن يسمح لها بأخذ الماء

حبا بأمه والعراق، ولما علم أنه الخريج الجديد الذي التحق مؤخرا في المكان البديل، أبلغه بأنه سيكون المسؤول عن الأمر، وأن يبلغها بأن يكون قدومها في وقت واجبه فقط، خشية من تعرضها لمشاكسة بعض الجنود الموجودين. فأبلغها مع شحنة سرور وشحت حكايته معها، مع أنها في نظره كانت السبب الوحيد في إنقاذه من معمل العلف الذي أحالته الطيور إلى دورة مياه، وفندق غير مصنف النجوم. وفي الصباح حينما وصل، نزل من السيارة على مبعدة تصل لألف متر عن الوحدة، في غايته أن يمر راجلا عبر الأراضي الزراعية كي يرى أي شيء يشير إليها، ويحمل في يده الكتاب الذي قرر أن يهديه لها، وحينما رأى الأبقار المرقعة باللونين الأبيض والأسود وهي تأكل ألجت في أرض أهلها، قال: حتى الأبقار صارت جميلة. ثم اجتاز المكان حتى وصوله إلى المعمل، يحمل لرئيس العرفاء دجاجة مشوية كان قد طلب منه ان يجليها له حينما يلتحق، مع بعض السكر والشاي الجاف وكيس من الحليب يشربه باردا كل صباح، فكان أول من اتجه له في غرفة رئيس العرفاء هو الذهاب إلى ورقة الواجبات المثبتة في الحائط كي يقرأ موعد واجبه، ليجد أن واجبه كما هو ولم يتغير، كما لو أن تعاطفا متعمدا يحصل من قبل الجميع نحوه.

لم يكن مكان الفيلق الجامع لكل وحدات الصنوف المختلفة بالبعيد عن معمل العلف، وهو على مسيرة ربع ساعة منه مشيا، لكنه كان من الداخل عميقا لثلاثة كيلومترات، يشق أرضه السبخة طريق معبد ترامت على جانبيه تلك الوحدات بما في ذلك مقرالقائد. روى الجنود له بأن المزعج في ذلك المكان هو الالتحاق الذي يغرق فيه الجندي ولن يعد بإمكانه رؤية العالم إلا بعد أربعة عشر يوما، ويندر أن تحمل مركبة الملتحق أو المجازمما يجبر على السير كل تلك المسافة، كذلك إن الأعمال هناك أكثر صرامة لوجود القائد، ففي كل صباح يشرف بنفسه على التعداد في ساحة عملاقة، وقد تطول مدة الإشراف لساعة، وأيضا، هناك العمل المكتبي تشرف عليه كل مدة لجان من رئاسة الحرس الجمهوري، فترصد كل الزلات وتعاقب أمر الوحدة على كل ملاحظة تدونها، عكس ما هو في المعمل، فمكتب القلم يكاد العمل فيه ينعدم، ولا لوجود لعرضات صباحية، ويقضي أغلب الجنود بالتسكع أو النوم على أكياس الحبوب تحت المسقفات، كما أن حركة السيارات القادمة من بغداد والذهاب إليها، أعطت المكان روحا من خلال ما يروونه من مسافرين في تلك الحافلات. لكن أحدا لم يكن يعلم متى تقرر العودة إلى الفيلق، أما أمر عودتها فهو محقق لا محال، كما أن بعض الوحدات شوهدت وهي تحمل أغراضها في

سيارت الأيفا، قد عادت لأماكنها الأصلية. وأيضاً عادت بباله مقولة أن الجيش سيريه كل أماكن العراق، حتى إنه كتب بتلك الليلة تحت ضوء صاخر وهو يشاهد منزل فتاته الجديدة، كتب بأنه شخص لا يمت بصلة لدراسات كريستوفر كولومبس، وليس معنياً باكتشاف البلاد، ثم أنهى تدوينته بشتيمة استخرجها من قاموس شتائمته المعروفة، شتيمة كان خص بها مرة واحدة رجلاً ستيني رآه يتحرش بامرأة بين حشود الناس المتبضعين في سوق الخضار، فالتفت إلى ذلك الرجل وقال له بهمس في أذنه: لقد رأيتك جيداً، وأنت أغبى رجل رأيته في هذا المضمار. ثم عبأ أذنيه بتلك الشتيمة الممنوعة بموجب قوانين الرقابة في كل الأفلام السينمائية والمسلسلات الفاشلة. كان الهاجس المخيف فيه يتضخم، حتى بعد أن التقاها وأعطاها الكتاب الذي دون فيه مقدمته عن الأمل، لكنه لم يخبرها عن افتراضات انتقال الوحدة، وترك الأمر لعبثية أيامه دون أن يفكر فيما لو حدث ذلك فعلاً. ومع شروق الشمس، استيقظ على جلبة الجنود ونواب الضباط وهم يفككون الأغراض ويخرجونها من داخل الغرف، واستنتج بدون عناء أن الأمر قد تحتم، وأن المغادرة فورية للتوغل في غور الفيلق الذي لم يره. كان ثمة شيء قد تحطم بداخله، وسمع صوت تكسره وهو ملقى بين الأغراض في الشاحنة العسكرية، فلم ير شيئاً مما كان يشرحه الجنود ممن معه حول مسافات الفيلق الطويلة، بل أغمض عينيه برغم كونه أول مرة يدخل للمكان الجديد، ولم يفتحهما إلا بعد أن وصل إلى المكان المخصص لوحده، كانت كتلة كبيرة ذات دورين من البناء الإسمنتي الجاهز، تشرق على قفاها الشمس، وتغرب في وجهها، تحيطها الأرض السبخة

الزيتية من كل جانب، وينبثق من أمامها درب قصير يتصل بالطريق المعبد الكبير المار بكل الوحدات، فكانت أوامر الإسراع بترتيبات المكان قد شاغلته عن التقاط الصور الأكثر إيلا ما لروحه حتى مجيء الليل، حينما باغت البعوض لحظات ارتياحهم بهجوم كاسح، فقال أحد الجنود له: نسيت أن أخبرك عن مواصفة أخرى تسجلها عن المكان، فالبعوض سيستمر بهجوماته الليلة حتى مجيء البرد، والبرد لا يأتي إلا في الشتاء، والشتاء لن يأتي إلا بعد أربعة أشهر. وواقع الحال، أن ذلك البعوض حاول قدر إمكانه أن ينسيه الأيام التي قضاهما قرب الماء والخضراء والوجه الحسن، حاول ذلك بلسعات كانت توقظ الميت، لكنه لم يقدر على إبعاد مذاق المارارة من فمه حتى بعد أن أشعل الجنود بعض الشجيرات الخضري يبعدوا بدخانها الأبيض بعض البعوض، فكان يقول بأنه يتعذب، وأنه لن يستطيع مواصلة حياته بهذا المكان إلا إذا تحول إلى حيوان، وود لو أنه يتحول إلى كلب أو حتى إلى بعوضة وينهي حياته أحدهم بضربة موجهة إليه. وأثناء تقلبه على فراشه في العراء، على التراب مباشرة مع بقية الجنود، كان يسمع صوتا غريبا قريبا منه، فرفع رأسه لمعرفة ما هو، رأى جرذا ضخما قرب حذائه، كان يشم جوربيه النتنة كما لو أنه كلب من كلاب الشرطة المدربة، وحينما نهض لطرده قال له جندي الملاحظات: نسيت إخبارك أيضا، هذا الجرذ ليس الوحيد، بل هنا آلاف من الجرذان ستعتاد على نهيزها كل ليلة، أما ما يزعجنا فيها، فهي لا تترك غذاءنا وشأنه، وعلينا من الغد أن ندبر خزانات من أي مكان لحفظ أطعمتنا، أعتذر عن نسيان بعض الأمور المهمة، فثلاثة سنوات قضيتها هنا أكلت فيها الأشياء أشياء أخرى، وسترتاح من رؤيتي الأسبوع

القادم حينما أتسرح ولن أرى هذا المكان إلى الأبد. كانت الجملة التي تحمل خبر تسريح الجندي قاتلة، فالوقت الذي انتهى به بدأ بغيره، وهو الآن يصارع حياة البراري بكل قوتها، ودون أن يعد العدة لأنفه شيء لمواجهتها، وأدرك، بأن المخرج الحقيقي من هنا هو إما الولوج في النفق والتحول إلى حيوان يعض ويعوي ولا يأبه لحياته، أو إكمال المدة بنزع شيء منه كل يوم، حتى ينتهي المطاف به كجندي الأسبوع الأخير من خدمته، الذي أقرب بنفسه بأن ذاكرته لا تحتمل سعتها ما صادفته هنا. فكان يشاهده وهو غارق بنومة سمكها متر عن مناخ الفيلق، وكأن البعوض والجردان ونتاجة جوارب الجنود والحربي من مقبلات وجبة لذيذة ينتظرها في مطعم الحلم الجميل. أما هو، فكان يشاهد القمر الذي خرج هو الآخر في الواحدة بعد منتصف الليل كي يضفي للمشهد صورته الرومانسية، ويضيء المكان العميق بعيدا عن معمل العلف الذي أمسى منذ الليلة ذكرى دخلت أوراقها فتاة خارقة وممزقة للزمن، معمل علف الدواجن المغلف بهالة تشبه قلب الحب، مرفيه سهم برأس يشبه دبوس بعوضة وله ذيل كذيل أول جرد عسكري رآه، فقال قبل أن ينام، ولم يعلم حينما استيقظ مع الفجر إن كان قد نام فعلا أم قد أغمي عليه، قال: كل ما أريده هو أن أستمع بالتفكير بيوم التسريح، إنه اليوم الوحيد الحقيقي الذي بإمكانه إخراجي من هنا، بذاكرة تامة، أو برقع ذاكرة حتى.

كعالم نسيان متكامل، كانت صورة المكان التي نقلها في أوراق يومياته. ولا مفر إلا بمجيء معجزة أخبره بها رئيس العرفاء، لكن الأمر رفض، فكان قاع الإحباط الموحش الذي وقع فيه بحاجة هو الآخر إلى معجزة، فحينما أخبره رئيس العرفاء عبيد بأنه أبلغ الأمر بضرورة التحاق كل جندي مستجد صفه إداري، أن يلتحق بدورة الإدارة ذات مدة الثلاثين يوما، لكن رفض الأمر كان سببه هو أن المستجد هذا كان خريجا حديثا من الجامعة، كما أن خطه جيد بعدما تم استكتاباه وشاهد الأمر كتابته. فاستسلم لعالم النسيان الذي ابتلعه وابتلع معه بعض الأيام الجميلة. كان يبدأ بالعمل المكتبي في النهار، بعد الاستيقاظ وقبل شروق الشمس بنصف ساعة، والوقوف بساحة العرضات ثم الرياضة الصباحية، وكان مكتب التوجيه السياسي يخفف أحيانا من ضجره واختناقاته من الحر بيئه عبر مكبرات الصوت الموضوعة أعلى البناية إعلان بداية اليوم من إذاعة بغداد، تبدأ بافتتاحية ببعض آيات من القرآن، ثم الأخبار وأغان لفيروز كانت تفتح له نوافذ من الماضي المغشى بكل أنواع تشويش الفيلق، وفي الظهيرة كان يلوذ الى غرفة المكتب الذي يعمل فيه ليرمي بجسده تحت المروحة دون أن يغفو وهو ينتظر انتهاء اليوم من خلال مراقبته كل يوم مغيب الشمس من أعلى المبنى وتحليق الطيور القادمة من البراري

والمتجهة نحو الغروب، كان يشاهد حتى حلول الظلام مشهد البراري الممتدة من نهاية الفيلق حتى الأفق، يتابع مغادرة الطيور لها إلى أماكن أخرى ويشم بعرق الرطوبة القادمة منها كلما تغير اتجاه الرياح، وفي الليل كان يضع أنظاره إلى بقعة الظلام الخارجة منها، كانت تمثل له نهاية ما، أو بداية ما، لكنها تمثلت في الأخير أن الظلام الذي يجتاح العالم كل يوم، مصدره تلك البقعة المسكونة بالمجهول. وفي واحدة من ارتحالاته تلك، ناداه جندي من الأسفل أن ينزل بسرعة لأمرأاده عبيد، ففي بريد مستعجل، تم إبلاغ الوحدة بضرورة التحاقه إلى دورة الشئون الإدارية، وأن عليه فوراً مغادرة المكان والانضمام للدورة غداً، فقطع للمرة الأولى العمق نحو الخروج، بعدما ابتسم له القدر في قتل شهر كامل من التعرق والبعوض والجرذان. أما فرصة استطلاع المكان عبر طريقه الطويل، فقد كان الظلام يبتلع الوحدات العسكرية كل دقيقة تمضي، ولم يكن يتضح منها غير مصابيح شاحبة متفرقة هنا وهناك. أما مكانه الآخر الذي وجد فيه كل جنود الحبانية والتاجي، فقد كان يستمع لكل واحد منهم كيف صرف به القدر في وحدته الجديدة، أبو العرق كما صار يسمونه الجنود، والذي كان مستعداً لدفع نصف عمره من أجل نصف زجاجة بيّرة تأتي إليه أيام التدريب، كان الارتياح مرسوماً بدقة على وجهه، وحكى عن وحدته التي كانت بجانب حي سكني فيه ثلاثة معمل لصناع العرق في الشمال، وتتوفر فيه أجود أنواع المشروبات، حتى إنه أبدى انزعاجاً من الدورة ووصفها بروتينيات الجيش التافهة. وجندي آخر كان يشتكي من البعد المضني عن منزله، وأن برطلة التي لم يرها من قبل بدت وكأنها تقع في آخر الدنيا، وهي سبب معاناته

لأنها تشعل الاشتياق كل ليلة فيه لأجل أمه. كانت الدورة الإدارية لا تختلف عن طبيعة الدراسة في أي مدرسة إعدادية، بل حتى مبناها كان يسمى مدرسة الشؤون الإدارية، ويتعلم فيه الجنود أصول الإدارة في المكاتب العسكرية. يبدأ العمل الساعة الثامنة صباحا بدون عرضات ولا أي ممارسات عسكرية مقيمة، وينتهي الساعة الواحدة بعد الظهر. فمن شاء بقي فيه ومن شاء يغادره فيأتي في اليوم التالي. وفي اليوميات التي تحولت من أوراق مبعثرة إلى دفتر ذي مائتي ورقة، كان قد أطلق على المكان بدورته الإدارية اسم: المنقذ من عالم النسيان. فقد رأى ذاكرته قد أينتعت، وبدأت أوراقها بالنمو من جديد، وصارت له صورة فتاته في الجامعة من الصور القريبة إليه، مع جهله بالسبب، لكنه اكتشف في آخريوم قضاه هنا بأن الحافلة التي كانت تقله كل يوم مع بقية الجنود، كانت نفسها التي طالما حملتهما معا أيام الدراسة، وعبر دليل أوقف الزمن فيها وتوقع أنه مازال في هذه الحافلة، فقد أخذ مرة منها دبوسا وحشره في الإطار الضيق لنافذة من نوافذها، ولم يكن بمقدور أي أحد إخراجه، أو حتى النظر إليه إلا إن كان يبحث في ذلك الإطار، وقال لها في وقتها: هذا الدبوس سيكون هنا حتى موت هذه الحافلة، أو موتنا. فاتجه بعد صعقة الذاكرة تلك إلى المكان الذي كان موجودا فيه الدبوس، وبالفعل، فقد وجده بمكانه. مع بعض الصدا الذي أجبره بالحديث مع الجندي الذي كان يجلس بالمكان الذي كانت هي تجلس فيه وقتها عن القصة، فقال له الجندي: منذ رأيتك تقرأ الكتب في الحبانية قلت مع نفسي عنك بأنك تحاول خداع الزمن، وها أنا أرى واحدة من انتصاراتك عليه. كان الدبوس مع قشور لب زهرة

الشمس التي كان يرميها بعثت في أي مكان في الحافلة، وأكثر أولئك العابثون هم من الجنود، وبعض بقايا السجائر، يرقد بسلام في مكانه، فقرر أن يتركه أيضا، دون أن يغير قدره في محاولة إخراجه. ومضى عبر أيامه الهاضمة للزمن العسكري حتى آخر عطلة فيها، حينما قرر أن يغادر إلى واحدة كانت أفضل من أي أحد على الإطلاق في إنقاذه، الريفية المدنية، وضحية العالم المبتلع لكل جميل. كما أنه في رحلته إليها، اشترى قميصا أصفر كلون علم سرية أيام التدريب، وذهب إليها مع الأمل الكبير في أن يراها، وخط بيده أيضا مقدمة في أول ورقة لدفتر ملون وفي غلافه قفل قد أعده هدية لها، كتب بلون أحمر بأن الحياة التي تطول فيها مسافات البعد، بإمكاننا اختصارها بالذكريات. وجد الأرض التي كانت قد حرثت للتو خضراء جميلة، ورأى الأبقار نفسها مع عجل صغير كان يتغذى من أمه، لكنه لم يكن يراها في كل مكان، وبرغم الكلاب التي هاجمته مرة أخرى حينما رآته، إلا أنه لم يكن يأبه لها حتى بعد أن اقتربت منه لمترين، فاستمرت بالعواء حوله حتى يئست وغادرته، أما هو فقد ظل يحوم حول الأرض المزروعة دون أن يجد لها أثرا، واقترب من نسوة كن يحوين الباذنجان، وسألته امرأة منهن عما يبحث عنه، لكنه التزم الصمت وغادر المكان، دون أن يعلم ما سبب اختفائها.

مثل عربون ترضية له، اعتبر ما قدمته له الأيام في اختصار الزمن بدورته الإدارية، القفز نحو منتصف تموز، فقد اجتاز لأول مرة ألفي متر مشيا من طريق الفيلق، وبدأ بتصوير الأماكن في ذاكرته المنتعشة قليلا. رأى تسع مدرعات مصطفات معا تحت سقيفة حديدية موضوعة فوقها قطعة تعريفية عن سرية حماية القيادة، وأرضا كان قمحها قد حصد ولم يتبق منه غير سيقانه الصفراء. كان كل شيء يراه يتحول إلى انطباع، ثم يحول هو ذلك الانطباع عبر تفسيراته إلى حالة ما، فحينما شاهد النهر المجاور للطريق لمسافة مائتي متر، قال بأن صورة الحياة هنا هي أقل مما يلزم، وحينما وجد جنديا ملقى على الأرض ومغمى عليه، وفي يده ورقة صغيرة كان قد كتب فيها بأنه مصاب بالصرع، هرع إلى صفيحة صدئة ثم ملأها بماء النهر وبدأ بإنعاش الجندي به، قال بأنه لم يربؤسا أكثر من صورة إنسان منسي وهو في أعسى أحواله. لكن نائب الضابط طارق، الشاب النحيل الأبيض الذي يسكن أقصى الموصل، ومسؤول القلم الذي يعمل فيه، قال له بأنه لم يرم من الصورة سوى جانبا المعتم، فالجنديان اللذان ركض إليهما وهما يتقدمانه بأكثر من خمسمائة متر وأخبرهما عن الجندي المريض، ما كانا ليأتيا لو أنه لم يصل إليهما متعبا ومتعرقا. أيضا، الدافع إلى الحياة التي بداخله كانت هي الهاجس

الحقيقي من أجل عملية الإنقاذ. سيري، كما أخبره طارق أن ما فعله هو ليس مساعدة كانت من حث الإنسانية، بل إن المرهف الذي يسكن بداخله لم يتركه، بل ولم يغادر حتى، إنما هو محبط لا أكثر. كان يستمع لطارق ونسائم من محبة كانت تبرده من حر المسافة الطويلة، فقد وصل وقص للبعض حكاية الجندي المريض بالصرع، وفاتت تصوراته بعض المسافات بسبب الإنهاك من الحر والانشغال بالمساعدة. وبعد استراحة قصيرة، أخذه طارق إلى مكتبه الجديد كي يريده إرشادات العمل، ووقت العمل الذي يبدأ بعد العرضات وحتى الواحدة ظهرا، ثم تبدأ الاستراحة حتى الخامسة عصرا ليعاود من جديد العمل حتى العاشرة ليلا، ثم يجهز نفسه لساعتي واجب غير ثابتتين، لكنهما تكونان ما بين العاشرة ليلا وحتى السادسة فجرا وفي نقاط حراسة مختلفة كالسجن إن كان فيه نزيل، أو حول المبنى في العراء. كما أنه قد دخل نظام الإجازات الاعتيادية، وعليه قضاء أربعة عشر يوما في وحدته مقابل أسبوع إجازة. لكنه على أية حال، لم يجد له انتماء في أي بقعة من المكان، رغم استسلامه المريح للواقع. فالمكتب الذي خصص له فيه طاولة ذات جرابين بدأ يحتفظ فيهما بكتبه التي يجلبها معه، كان المكتب خائفا وبمروحة تدور من أجل بث الهواء الحار، وغرفة المنام والأكل التي جمعت مع جنود أقدم منه بقليل، كانت بلا مروحة أصلا، ويغادرها الجميع ليلا للمبيت خارجا تحت السماء، والحنوت الذي يشاهد فيه التلفاز كل ليلة يذكره كلما دخل بفاكهة التين، ففي أول يوم من دخوله الفيلق قبل ذهابه إلى الدورة الإدارية، دخل إلى الحانوت للبحث عن شيء يأكله بدلا من حساء العدس، فلم يجد سوى

السجائر وبعض تين موضوع في سلة من خص النخيل بدا وكأنه مطبوخ بفعل حرارة المكان، فاشتري نصف كيلو ثم جالس على الأرض وبدأ يأكل، كان يشعر بانسحاق أشياء بين أسنانه، لكنه تجاهل كل شيء ومضى بتناوله حتى آخر تينة، والتي حينما فتحها وجد في داخلها ديدانا بيضاء صغيرة، فأيقن بأن ما كان يُسحق هو تلك الكائنات الصغيرة، لأنه كان بمرحلة من التجرد ألغى فيها أيضا حواسه، فنهض ومسح فمه بيده وقال: بالعافية على قلبي. كانت فكرة الانتماء هي شاغله، فحتى الآن لم يجد الصديق الذي يظهر من بين صدف المكان فيواصلان التدريب معا، والأماكن كلها مجردة من الروح بسبب الصيف المشتعل والانعزال. فقضى تسع ليال بواجب مكرر كان يبدأ الساعة الثانية بعد منتصف الليل ولساعتين. تعرف من خلالها على الليل وهو يضع على صدره تسعين طلقة مخزنة في شواجيرها، ويحمل بندقية روسية، كان وحيدا يستجمع الشتات المنبعث من بين الظلام كي يدونه بدون أي سهو في يومياته، تسع ليال كان أعدها له نائب الضابط عبيد بتوقيت واحد في اختبار أقرب به أخيرا، حينما اعترض أحد الجنود أثناء تقسيم الواجبات على تكرار اسمه لليلتين، فانفجر عبيد غاضبا بوجهه قائلا له: وهذا الخريج الذي شققت فمه بتسعة واجبات متتالية لم ينبس لو بحرف اعتراض واحد. ثم أمر بإعفائه من الواجب حتى موعد إجازته ومعاقبة الجندي المعارض بواجب مكرر في أقصى نقطة في العراق. كانت اليوميات هي انتماءه الحقيقي بالنسبة له، فمنذ إعفائه من الواجبات على امتداد خمسة أيام، كان يسهر في التنقل إلى الحانوت لمشاهدة فيلم السهرة الأجنبي، وبين جلوسه وحيدا إما يكتب أحواله في مكتب

عمله، أو يعمل ما يؤمر به من قبل طارق، لكنه اكتشف أمرا كتبه، وأن الليل صار رفيقا آمنا له، بإمكانه الحديث معه عن كل شيء، وهو متفهم جدا ويعرف أشياء كثيرة من حياته، كما أنه يعطي بعض الآراء له حينما يكتب مذكراته، أما النهار، فهو عسكري لا يعرف المجاملة، وعلاقته به ليست على ما يرام. وفي أول إجازة له من المكان العميق، كان يراجع التاريخ بتركيز عال ليشاهد فيه أن تاريخ التحاقه القادم سيكون في بداية آب، الشهر الأخير لقوة الصيف الغاشمة، كما أن خدمته قد بلغت من العمر سبعة أشهر، ولن يكون هنالك آبا آخر بعد هذا، بل سيكون حرا وسعيدا. فذهب في ثاني يوم من إجازته إلى بغداد، واشترى من المكتبة العالمية كتبا جديدة أعد لقراءتها بعد الالتحاق، ثم قضى الظهيرة كلها بسينما غرناطة وهو يعبر الزمن في ظلامها الذي لا يشبه ذلك الظلام، ولما أغمض عينيه، أيقظت موسيقى الفيلم الهادئة التي كان يستمع لها ذكرى فتاة معمل العلف، فقرر أيضا ألا تمضي إجازته دون أن يأخذ الدفتر الملون معه ويذهب إليها، لكنه أخفق أيضا في رؤيتها، ودون أن يتوصل إلى أصغر سبب يؤدي به إلى معرفة مكانها، فعاد مع الدفتر مع خيبة أمل كبيرة، وكتب في مذكراته بأنه لم يعد يعرف شيئا عنها سوى أنها ما تزال موجودة في هذا العالم. وقرر أن يحتفظ بالدفتر مغلقا، ودون أن يقرأ ما كتبه فيه لها، حتى اللحظة التي تفتحه هي بيديها.

الثعلب، هو الاسم الذي أطلقه على بديل طارق الذي ذهب في إجازته ولعشرة أيام، فمنذ اللقاء الأول مع ذلك نائب الضابط لم تكن أية رابطة ارتياح له، كان رجلا في العقد الخامس من عمره، قصير تمر في منتصف رأسه طريق صلح كطريق الفيلق. والأمر الذي اتفقا فيه منذ أول مرة تواجهها هو عدم الارتياح لبعضهما، فسؤال الثعلب له عن الكلية التي تخرج منها، ثم حديثه بسخرية عن خريجين سابقين رفضوا النزول من أبراجهم العالية، فلقنهم دروسا لا يظن أن أحدا منهم سينساها، لكن الآخر رفض صفة الخريج بالفتى المدلل، وقال بأن أولئك من تحدث عنهم لا بد أنهم كانوا خردة ولم يتمكنوا من إنقاذ وجودهم. وواقع الحال، أنه لم تكن لديه أية وسيلة دفاع أو هجوم مع الثعلب، لكنه قام بتلك المناورة من أجل بداية غير هشة، وأنه على استعداد أن يكون مع الجنود المشاة الذين لم يكملوا دراستهم فلفتهم العسكرية حينما تم طلب مواليدهم إليها. قال له جندي لحق به لينصحه بأن ما صرح به لن يزيد الأمر إلا صعوبة عليه، وأن القصص التي رووها عن الثعلب بترك الكثير بسببه الجيش ودخولهم خانة الهروب والملاحقة. فوجه شكره له وقال له: ربما سأهرب من الجيش لو أنه أصر على مضايقتي، لكنني إلى الآن صامد، وأراهن على الزمن في تغيير ما سيكون. فلم يتنكر لخصلة وجدها في الثعلب في أنه لا

يحب العمل، بل إنه كان يكلفه بأعمال كثيرة ويتركه وحده في المكتب لساعات،
وحيثما يعود يجد كل شيء منجزاً وبدون أصغر ملحوظة بإمكانه أن يبدأ منها
المعركة لتحطيمه. لكن العداء البارد ظل مستمرا ودون أن يتنازل أحد عن
مواقفه، وأولى الضربات التي تلقاها كانت في نظره ليست لعسكري محنك قد
أرشف تاريخ الحروب في مخه، فحينما أكمل عمله، أخرج من الدرج كتاب
قصص إيطالية متنوعة، كان اسمه خطوات على الثلج، فسأله عما يقرأ، فلم
يتحدث معه، إنما وجه بغلاف الكتاب إليه كي يقرأ هو عنوانه ثم واصل القراءة
بعد ذلك وهو مدرك جيدا ببحث الثعلب عن خطأ ما أو أي تقصير بالمكتب،
فغادر المكان دون أن يقول له حتى تصبح على خير كما هو معتاد، بل لم يذكره
بالوصايا التقليدية في مغادرة المكتب، وهي التأكد من إطفاء كل مغذيات
الكهرباء، وإغلاق النوافذ، وإغلاق الباب جيدا. غادره وهو يقرأ قصة (كرب)
لألبرتو مورافيا في الساعة الحادية عشر مساءً، وفي الصباح، ناداه عبيد
بتسمية جديدة أثارت الضحك عند كل من دخلت أذنيه، وتساءل الأمر الذي
حضر بعد ذلك إلى العروض عن سبب تسميته بذلك، فأخبره عبيد بأن
الثعلب قد روى في جهو النواب ضباط عن كثرة قراءته للمكتب، حتى إنه في الليلة
الماضية لم يجب عن سؤال عما كان يقرأ، وهذه علامة بسيطة من علامات
التسمية الجديدة، فعلم هو بأن بداية الحرب كانت غير متوقعة طبعا، لكنها
لم تكن بالمستوى المحسوب له، بل إنه تفاعل مع اسمه الجديد وضحك مع
الجميع، واعتبر الأمر مجرد محاولة يائسة في استفزازه لافتيال مشكلة قد
تؤدي إلى عقوبته، بل وفهم أيضا بأن جهل الثعلب لم يوفقه في إرشاده جيدا

في اختيار المصطلحات، ومؤكد بأنه لم يكن يدري معنى ما أطلق عليه من اسم. ومن ذلك الزمن، نسي جميع اسمه، وصار الاسم الجديد هو الإشارة الحقيقية إلى المشار إليه، حتى إن الجنود الجدد الذين كانوا يلتحقون إلى الوحدة من مراكز التدريب، لم يعرفوا اسمه الحقيقي أبدا. وحينما مرض، بعدما غسل جسده خلف مبنى الأمرية بعد حلول الظلام بقليل، شعر ببرودة في الهواء القادم من البرية المطلقة، وبرودة الماء كذلك، فسقط بالتهاب اللوزتين وحمى كانت تذهب به إلى أحلام غير مفهومة في منامه، وحينما دخل علي وسمي، وهو جندي من المشاة كان هاربا وعاد مؤخرا بعفو حكومي شامل عن الجنود الهاربين وبدون محاكمة، كان هروبه ليس الأول، لكنه كلما كان يدخل في سجل الهروب يصدر عفو فيعود، وبعد مدة يعاود كرتة فيهرب، كما أنه لم يكن منظره بالمريح، فالبثور الكثيرة التي تشوه وجهه توحى بريبة منه لكل من يشاهده. حينما دخل إلى غرفة جماعة القلم ووجد المريض، قام بخطوة حسنها الجنود بأنه سيسرقه ويذهب به إلى مكان ما، فهناك شائعة تقول عن علي بأنه يسرق أيضا ما تقع عيناه عليه، حمله على كتفه وذهب به إلى وحدة الطبابة التي تبعد عن وحدتهما أكثر من ثلاثمائة متر بطريق متعرجة بين الظلام، فوضعه على سرير من أسرة المرضى وذهب يبحث عن معالج يخبره. كان ذلك العمل يثير الشروحات الكثيرة حول هذا الإنسان الذي لا يحبه أحد، ولا يطمئن له أي شخص يقترب منه، لكن كل أولئك الذين لم يحبونه، والذين لا يأمنون له، لم يكونوا ليعطوه الفرصة في توضيح الشخص الحقيقي الذي يريد أن يكونه، بل سقط في الشخص الذي أرادوه هم أن يكون. فتذكر صديقه

عامر حينما جاءه بأول اكتشاف فلسفي بعدما قرر أن يتخلى عن هوس الحب والانشغال بالدراسة والأدب، حينما جاءه بنظرية أن المحيط هو من يخلق الفرد، وهو من يصنع منه الناجح العبقري، أو الفاشل المنبوذ. فسأله: كيف ذلك يا عامر، فقال له: سمعت أمي بالأمس تقول إن الناس إذا اجتمعت على طير في السماء وبدأت تقول عنه: سيقع، سيقع، ذاك الطير حتما سيقع، فإنه سيسقط حتما. فقال له: هذه نظرية تسقيط يا عامر، ولا دخل لها بما جلبت لي من فكرة. لكن عامر قام ثم وقف أمامه وقال له: أنت شمهك يمعود، أنت اختصاصك بنات. وأني اختصاصي فكر وأدب. وصدقا، فإن عامر بعيدا عن مثال أمه، كانت مقولته تنطبق كثيرا على علي وسمي، الذي جلب له طبيبا برتبة ملازم كي يفحصه، ثم أمر بزرقه إبرة مضادة للالتهابات، ونصحه بالبقاء لساعة على الأقل هنا لأخذ الراحة، ثم سأل علي وسمي عن اسم المريض، فأمسك علي بفكه الأسفل وهو ينظر إلى سقف الردهة محاولا تذكر اسمه، فقد كان الاسم الذي يطلقه الجنود صعبا عليه، مما أخذ به بعض الوقت في التفكير ومحاولة جمع حروفه، فتذكر الاسم كمكتشف وحول وجهه هالة سعادة حينما قال للطبيب: تذكرت يا سيدي، اسم المريض هو، بروفيسور.

تمثل له شهر أيلول موعدا لاحتضار الصيف، وفي الأخص لياليه التي كانت تحمل النسائم الطيبة من كل جهة، ومن جهة البراري، فقد كان يمعن في الظلام الذي صار يتكاثر غموضه ويشعر مع نسائمه قدوم أرواح منه أيضا، وبعد كل شعور يمر فيه إزاء تلك الجهة يغمض عينيه ويحاول الإنصات كي يثبت بأن خياله لا يتصنع ذلك، إنما ما يأتي من ذلك المكان الذي تنتفض فيه الحياة مع الظلام هو حقيقة لن يتمكن أحد إثباتها، بل عليه الاستمرار بالشعور فيها. فكان كل مساء يفتح النافذة المربعة الصغيرة والوحيدة في غرفة منامه ومنام جماعته، والذين مازالوا بعد لم ينتقلوا إليها للمنام والبقاء خارجا لتمضية الليل، كان كل ليلة حينما يبدأ بحلاقة ذقنه، يفتح النافذة المطلة نحو البراري فيثبت المرأة في إطار النافذة كي يطل على الظلام ويستنشق هواء المكان البعيد، ومن ذلك المكان، كان يرى نفسه كشخص لا يرى منه غير رأسه من نافذة مربعة صغيرة، يحلق ذقنه، في غرفة مضاءة بمصباح ضعيف ذات الستين واط، ثم بعدما يكمل يغلق النافذة فيحجب زجاجها المتسخ الضوء إلا من بعض أماكن نظيفة صغيرة يتسرب منها الضوء في بقع متفرقة على الزجاج. كان قد أكمل للتو حلاقته، مقررا الذهاب إلى الحانوت كي يرى من تلفازه الدنيا والسهر على فيلم يستحق المشاهدة، خصوصا أن قائمة

الواجبات لليلة لم يكن فيها اسمه، فالتقى بيوسف بعد افتراق دام لأكثر من سبعة أشهر، كانت الصدفة قد قادتهما نحو الحانوت كي يلتقيا، فبعد الليلة التي ناما فيها على الطريقة الفرنسية، ظهر صنف يوسف في الهندسة العسكرية، وتم إلحاقه إلى الفيلق في وحدة الهندسة، ولم يعد أحد يعرف خبرا عن الآخر، وقتها كانت العاشرة ليلا، لكنه لم يكن لديه عدادا للوقت إلا حينما نبهه يوسف بأن الساعة قد دخلت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، وأنه مرغم على الانصراف. ونوه ليوسف بأن اسمه الصريح أغلب الجنود لا يعرفونه، وإذا سأل أحدا عنه فليخبره باسم البروفيسور، فكان يوسف يضحك على غرائبية ما يجري، فحديث الذكريات التي جمعتها معا منذ أيام الحلة وحتى التاجي تصور بأنها لن تجد منافسا في شقاواتها معه، لكن أن يصل الأمر إلى الاسم، فذاك أمر يستحق لقاءات كثيرة وأحاديث أكثر، وبعد وداع يوسف، بينما كان مستلقيا يتأمل النجوم، بدت له مذاقات الأمور تختلف من لسان إلى آخر، ومن شعور إلى شعور، فنهض متجها نحو غرفة المنام الحارة كي يكتب ما حاول تأجيله إلى اليوم التالي، كتب التساؤل الذي خطف من ذهنه كما أرواح البراري التي تترقبه، وقال: كيف يعقل أن تكون الذاكرة المرة التي طالما بصقتها وأنا أتعذب في تلك الأماكن، أن تكون مضحكة وحاضرة بكل قوة فوق رفوف الأيام وبين صفحات الروح، لم أعد أدري كيف يتحول القبح الحاضر إلى جمال زاهٍ حينما ينظم إلى كتائب الماضي، فكيف إذن نتذوق الحياة على أنها حلوة؟ وكيف يتذوقها الآخرون بنفس الوقت فيبصقونها على أنها مرة؟ كان يقف بعدما أكمل كتابته عند النافذة المربعة، فأغمض عينيه

كي يشاهد نفسه من المكان الآخر، وكيف كان يبدو ذلك الوحيد الذي يشاهد
العدم، في الغرفة الوحيدة المضاءة بذلك الوقت. ليغلق يومه بيوم جديد آخر
كان قد التحق فيه طارق، الأفضل لديه من الثعلب الذي غادرون أن يودعا
بعضهما، وعلى أمل ألا يلتقيه لو حصلت معجزة، أما مع طارق، فالمبهبج فيه
هو وجوده المرن، إذ لم تعد العلاقة بينهما علاقة جندي مع مسؤول، بل
انتقلت إلى الأجل، صاريقرأ من الكتب التي يأخذها بدون تكلف من الدرج،
بل حتى إنه صار يأخذ الكتاب الذي لم يكمله في الوحدة، يأخذه معه ليقرأ في
طريق الذهاب إلى البيت أو الالتحاق إلى الفيلق. والجميل الذي كان يحبه في
طارق، أنه مع صمته الكثير، كانت تتعلق بسمة دائمة في فمه، الأمر الذي يأمن
الجميع له حتى أضعف جندي مستجد يعاني غربة الأماكن. كانت النهارات
تساقط من التقويم مسرعة أثناء تواجده، عكس أيام الثعلب، فكان يحسب
أيامه التي سيقضيها مع طارق، والتحاقاته التي تتصادف مع وجود الآخر والتي
كان يعتبرها من أسوأ المصادفات. أما طارق، فقد كان يدري مدى سوء العلاقة
بين الاثنين، لكنه كان يعتبر ذلك كما قال للثعلب، بأن الأمور لن تنتهي بنهايات
سيئة، فكل ما موجود في الجيش هو جزئية سيئة لواقع أسوأ. أما ما قاله
للبروفيسور، فكان نصيحة من أخ كبير بالأ يخرس الصورة التي في أذهان
الآخرين، واختصر كل ما يريد قوله في جملة قصيرة: لا تدع الأيام العصبية تقرر
حياتك، فسيأتي اليوم الذي ترانا فيه أناسا لا نستحق أن تكتبنا في يومياتك.
فاعتبر نصيحة طارق هي رأس المال الذي يجب أن يدخره لأجل المواصلة حتى
النهاية، وكل ما يسمعه من غيره هو رأس مال خاسر. في الليل، كان قد اتفق مع

جندي من بغداد، كان خريجا من كلية الهندسة في الجادرية، على قضاء ساعات الواجب معا من أجل النقاشات، فقد وجد في أوس أيضا شخصا محبا للمعرفة، وكان مثله مصاب بالضجر، كان يحفظ لأسين بلاثيوس بعضا من آرائه الاستشراقية، ولمجد جدا بالأدب الروسي، فصارا يمضيان أربع ساعات من الواجب في كل ليلة حوارات في العراء الخلفي للمبنى، يشربان خلالها الكثير من الشاي، وصادف أن صار نزولها في الإجازة والالتحاق معا، فكانت المسافة الطويلة التي يمشیان بها نحو البوابة الرئيسة مختصرة بفكرة واحدة يطرحها هو، أو أوس، وحدث أن قال لأوس بعد أن اقتريا من البوابة بإمكانية عودة الزمن الذي كانا يمشیان فيه، فكان أوس من شدة تعبهِ أن قال له أن الإجابة عن سؤاله تتعلق بعلاقة الكتلة مع الزمن، أما هو فقد كان يستشعر ضعف الحرارة في الجو، معتبرا بذلك مقدمة رائعة لدنو الشتاء، فلم يكثرث لإجابة أوس بقدر اهتمامه بما كان يستشعر، وقال لأوس: لا أفهم ما تقوله، لكنني أظن أن الزمن بإمكانه أن يعود لو عادت كل جزئيات الكتل التي كانت موجودة فيه، فعمرک مثلا حينما بدأنا المسير ليس كعمرک الآن، فلا عودة للزمن وقد تبدلت فيک خصائص کتلتک.

كانت ذريعة مكشوفة بالنسبة له في زيارته للجامعة، فغير المعلن كان استرداد بعض أطراف كانت في أماكن مازال الحب فيها زاهيا، وسمة التجديد في الحب هو في الوجوه التي لم يراها من قبل، طلاب وطالبات يدخلون عالم الشباب بكل عنفوانه، يدخلون عالم التجربة في كل اتجاهاتها. فرأى كما تصور من هم على شاكلته، يسرفون الوقت في السعادة الحاملة، ومنفصلين عن الواقع بكل أحواله. ومن هم على هيئة عامر، ما قبل الحب وما بعده، لأنه لم يكن يتذكر طالبا كان منعزلا ويقرأ منهاج دراسته إلا وقد أصيب بخيبة حب كبيرة. كان المعلن في زيارته كتابته لمقال عن المكتبة المدرسية في الحصار الاقتصادي، فحينما كان في الحانوت، رأى إعلانا عن جريدة يصدرها قسم الإعلام في كلية الآداب، فجازف بكتابة مقال من أجل نشره، لكن الذريعة كانت تلوح بيديها الاثنتين، والنوايا كان يعرفها حتى بائعي العطور وأغراض التجميل في باب الجامعة، والحقيقة أنه كان يبحث عن رابط جديد يعيد أمجاده بالمكان الذي غرز فيه أول شتلات حياته الجميلة، فهم الأمر كرسالة مشفرة جاء عبر إعلان الجريدة، وأنها تستقبل كل الآراء الحرة. فسلم المقال المكتوب بخط يده إلى فتاة الاستقبال الجالسة عند مدخل مبنى الجريدة، ثم ودعها بعد أن قالت له بأنها سوف تعرضها على المختصين. وجد في نفسه الثقة المطلقة حينما دعا

نفسه إلى كوب شاي في نادي الكلية بأنه يحمل السبب المبرر والقوي لتواجهه هنا، بل إنه عد نفسه من المثقفين وقد بدأ أول خطواته بمقال مهم سيعجب المختصين والقراء على حد سواء، ثم أعطى لنفسه موعداً آخر لمجيئه إلى هنا لأجل إجابة ضرورية عن مصير المقال، وهو الإجازة القادمة، فكان الامتحان هو الشعور النبيل الذي عرضه لنفسه حينما قرر المجيء في الإجازة القادمة من أجل بعث الروح لمواطن الذاكرة، والعيش قدر الإمكان بعد تعاطي جرعة إضافية من الماضي. غادر بعد أن شارفت الجامعة على إخراج حتى موظفيها. كان يكتب كل أيام إجازته السبعة باختصار ولمرة واحدة، يختار ليلة منها، ثم يبدأ بتدوين بعضها من أوقاته التي أسرفها، وهذه الإجازة، كان قد اختصرها في الليلة الأخيرة منها عن ذهابه إلى الجامعة، مع الإقرار بالمعلن وغير المعلن عن رحلته، وأنه سيعاود الكرة في الإجازة القادمة من أجل تلقي الجرعة لا أكثر، أما المقال، فبرغم من كونه أخذ بالتحول، رأى أوان قراءته الكثيرة بأن تترك بصمة ما في حياته، لكنه حتى الآن لا يدري بأي تيار هو، وكان يصف نفسه بكمال في رواية السكرية، لكن كمال أفضل منه كما كتب بيومياته، فقد اتخذ من حيرته تياراً ركب فيه زمن تفكره، أما هو، فلا يدري بأي اتجاه تذهب الحياة به الآن، وبالفعل كان يريد أن يبدأ، وينتظر صفارة ما تقول له: انطلق. فانطلق في اليوم التالي إلى الفيلق وحقيبته المعلقة على كتفه مثقلة بالكتب والطعام، فناداه وهو يدخل بوابة الوحدة كل من الثعلب وعبيد، كان أول ما قاله حينما رأهما شتيمة عملاقة لو أنهما سمعا بها لقتلاه بمكانه، فأعطاهما بعضاً من الطعام الذي ناداه من أجله، ثم انصرف نحو غرفة المنام وضيقه كان بحجم

أسبوعين سيمكث فيهما في الفيلق، كتب في تلك الليلة بأن البداية المظلمة لهذا الالتحاق بدأت مع رؤية الثعلب الجالب للتعاسة من مسافة ميل، لكنه شغل نفسه في حفظ الوثائق والكتب الصادرة والواردة، بعد ذلك، أخذه الثعلب إلى مكتبة الوحدة من أجل إعادة تصنيف كتبها وتنظيف الرفوف الغارقة بالأتربة. كانت المكتبة تحتوي على أربعمئة كتاب، وكل الكتب كانت تعنى بالتدريب والإرشاد الخاص بالدفاع الجوي، وكانت مليئة بصور الأسلحة المضادة للطائرات، فكان يقلب بعضها من صفحات تلك الكتب، ويقرأ كل شيء جاف فيها، قال وهو جالس لوحده: الحياة متييسة في هذه الكتب، لا يوجد أبطال ولا شخصيات كما الروايات، بل لا يوجد لأي كائن غير تلك الأسلحة. فأنهى في تلك المكتبة نهارا كاملا كان قد أعاد ترتيبها بشكل أبهر الثعلب الذي أبلغ الأمر بأن يقوم بزيارة لها، ولما زارها، أمر بتوجيه كتاب شكر له، دن أن يسأل حتى عن الجندي الذي كلفه بها. كانت تلك الضربة الثانية، والتي عدها بأنها تختلف كلياً عن الأولى التي حصل بسببها على اسم جديد، فقد كانت ضربة غير موفقة، أما الثانية، فقد كانت مليئة بالحظ وفيها قال الثعلب له بطريقة مستفزة بأنه لا شيء هنا غير كونه جندي كأني جندي مأمور، يعمل من الصباح إلى الليل كما لو أنه غير مرئي، ودون أن يدركه أحد. فغادر المكتب وهو يحمل الانتصار في شكل كتاب شكر موجه له، وتاركا الآخر صامتا لا يحمل أي أداة مواجهة. سوى أنه يفكر بأن الليلة هي الليلة الأخيرة لذلك الثعلب ولعشرة أيام، وسيكون هو غير المرئي منذ الصباح، فيأتي طارق ليغير مجرى كل شيء معه هنا، وما عليه سوى تمضية بعض الوقت في الحانوت، ثم النوم استعدادا

لواجهه الذي يبدأ الرابعة فجرا، والذي رأى فيه ثعلبين كانا قد أتيا من البراري، حينما اخترقا الظلام ووصلا إلى هنا، فلم يلاحظا وجوده حينما كان جالسا القرفصاء وبندقيته بين رجليه، كان وقت تأملهما وهما على مسافة أمتار قليلة منه، وقت جميل لرؤية بعض رسائل ذلك المكان المجهول البعيد عنه، فتمنى لوأنهما يقتربان منه أكثر ثم يشرحان له حقيقة تلك البرية، كان يود ذلك حقا، حتى إنه أراد أن يبدأ الحديث معهما، لكنه خشي من إفزاعهما ثم الهروب وإخبار الأرواح التي يستشعر بها هنالك. فاكتفى بالمراقبة وهما يتحسسان بأنفسهما الأرض، ثم غادرا وهو يتابعهما بعدما بدأ الظلام يشح، حتى وصلا إلى عالمهما.

كان ضياع المفتاح نذير شؤم له، وظن بأن أحدا ما قد أخذه منه بالرغم من عدم علم أحد بالدفتر، وكان دوما يرافقه في كل التحاق ونزول، ففي الأصيل بينما كان هو أعلى البناية يتابع أقول الشمس ورحلة أسراب الطيور من أماكنها إلى أماكن أخرى، أخذته لجة حنين إلى القاهرة الزمن، فكان يقلب بذاكرته الأوقات العصبية التي كان تنكسر في اللقاءات العجيبة. وأجهد عينيه في الوصول إلى بعض من دارها المختفي في البعد، لكن الضياء كان في طريقه بتسليم باقي اليوم لليل. تذكر أول مرة التقى بها كفتاة عادية لم يكن لها وجود في سجل حياته، ثم اكتشف من بين عينها الود الخفي المبعوث من القلب. ولطالما قال لعامر بأنه يجيد علم النفس بالفطرة، وعليه شحذ تلك الفطرة بقوانين جديدة تختصر له الطرق في فهم الآخرين. لكنه أول ما شرع بقراءة كتاب لفرويد، أخفق في مناقشة عادية مع نضال، بل حتى اختلف وتخاصم معها حينما قالت له: إنك تجيد الكتابة، لكنك لا تجيد الكلام. لكنه بطبيعته في النقاش مع نفسه، لم يترك لها ردا مطلقا، بل إنه صمت واعتبر الأمر بأنها قالت ما لا تعنيه، وإن عنت شيئا، فهي لم تقصد، وإذا قصدت، فقد أساءت الفهم. هكذا كان يفسر لنفسه خواطر الآخرين، أما في الحب، فقد كان الأمر مختلف، وكان بالنسبة له كحرب باردة يريد الطرفان فيها إعلان الاستسلام

ويقران بالهزيمة أخيراً، مع أن بداخلهما انتصار تاريخي كبير. ولم يجرب الصد مع فتاة إلا مع فتاة كانت تحب حكي النكت، وفيما مر بحياة عامر، الذي استشاره بيوم ما عن طريقة يجعل فيها الفتاة التي صدته أن تشعر بالندم، فقال لعامر: لا يقهر المرأة إلا المرأة. وفي الحقيقة لم يكن يعلم إن كان ذلك صائبا أم لا. لكنه أعطى ذلك الترياق لصديقه كي يجعله يغير الركود البائس في قيعانه. ومحاولة لتجديد بعض من الروح الحزينة فيه. فقرر عامر البدء من جديد برحلة نسيان في قصة وهم أخرى. كانت الذاكرة أول من يولد فيه وبأصغر شرارة شعور. فقرر بعدما ينزل من السطح، بعدما يتمكن الظلام من الأماكن كلها، أن يقرأ ما كتبه لتلك الفتاة التي غيها الزمن، وكأنه يقول له بأنه خسر معركة، لكنه لم يخسر الحرب. لكن ما أدهشه هو اختفاء المفتاح الذي كان يبدو كمفتاح ذهبي حقيقي. فبدأ بالبحث أولاً في الدرج، ثم بين الكتاب وانتقل إلى الحقيبة التي كان ينفذ بطنها عل شيء يقع منها. ثم أعاد البحث في كل شيء كان يبحث فيه، وحاول مجدداً عبر ذاكرته في الرجوع إلى الخلف عبر الزمن، لكنه لم يكن بوسعه أن يتذكر أين اختفى المفتاح الصغير. فلم يستطع في تلك الليلة أن يقرأ أي شيء، ومزق عشرة أوراق كتبها في يومياته التي ملأها بالرتاء لإخفاقه في تذكر الكلمات التي كتبها لأجل الفتاة في الدفتر المغفل. لكنه وبعد انتصاف الليل، استسلم وكتب هذه المرة عن النسيان كرسالة فك رموزها بضياح المفتاح وتبخر الكلمات، لكنه كما قال، بأن الذاكرة تولد في أصغر شرارة، وبإمكانها إشعال حريق هائل من ومضة تأتي لو دام اختفاؤها ألف سنة وسنة. وظل يكتب حتى أعاد العشرورقات التي مزقها،

ثم أنهى يومياته بعدما قاطعه عواء بنات أوى الآتي من ظلام البراري، واتجه نحو النافذة كي يبعث بروحه نحو عالمه ذاك وهو مدمي الروح. كانت تلك الحادثة قد غيرت كل مخططات إجازته المقبلة، بل وأربكته بفرضية التغير الذي يكمن في مفاصل الوجود كله، فعزیز المصري أخبره بخطة ستذهب به إلى بلاده، بعدما نجح في تكوين ثروة لا بأس فيها مكنته من منزل جميل وبعض مال سيعمل به هناك. قال له بأن مدة بقائه ستكون أقل من عام، سيصفي فيها كل متعلقاته. كان ذلك الخبر أول شيء يتلقاه في أول يوم إجازته، فكانت رغبته بعدما غادر عزيزي المشي، المشي أطول مسافة ممكنة، فتمنى لو أن دربا بدون أي انحرافات، مستقيم وممتد كما طريق الفيلق وأكثر طولاً بألف مرة، يمشي فيه وحيدا كي يحاول تفسير ما يجري، فثمة خطأ موجود، ولا يدري أين هو، لكن خطأ موجودا بقوة يربك ذهنه في توضيح أسباب الأشياء التي بدأ يفقدها، أو هي التي بدأت بالاختباء. فعاد بعد أربعة ساعات من المشي متعبا متألماً القدمين، ثم رمى بجسده على السرير وهو بين الظلام دون أن يدري أنه نام من شدة إرهاقه، لكن صوت الراديو الذي كان يبث أخبار الساعة الثانية بعد منتصف الليل لإذاعة أبو ظبي، أيقظه مع المصباح، بعد عودة الكهرباء، فنهض ليجد نفسه أنه ما يزال ببنتولونه الأسود وقميصه الأبيض، ويشعر بالجوع، ليبداً من جديد مع الليل، بالاستماع إلى أغان عبر الإذاعات، حتى ولادة فكرة الزيارة الأخيرة، والتي حذف فيها خطة ذهابه للجامعة بتغيير بوصلته نحو فتاة سيخبرها بأنه أضاع مفتاح الدفتر الذي صار ينتقل معه أينما حل، ويخبرها بفقدائها الهائل الغريب. حتى إنه قرر أن يعترف لها بأنها

الوحيدة التي شح عليه كل جميل معها، وأنه سيلبس كل ما تخطيطه هي لأجله
كي تبقى حاضرة بكل وجودها معه، كان يعد الكلام لها خلال سهره، ثم انتقل
إلى كتابته خوفا من نسيانه، لكن كل ذلك لم يكن بالنافع معه، فالأوراق
الثلاثة التي كتبها، والدفتر المقفل ذو المفتاح الضائع، وكل دقيقة قضاهها مع
الليل في صناعة الكلمات، قد عادوا بخيبة كما خيبات الزيارات السابقة،
خيبات لم تلاحقها الكلاب التي كانت تشاهده بنظرات ملولة، أوقميصه الأحمر
الذي لبسه في أول زيارة، بل لاحقه بعض الفلاحين وهم يحملون عدة الزراعة
في وضعية هجوم مضاد، فالصمت الذي كان يحيط بطوقه كل المكان، كان
يجده نقيضا في تلاطم أمواج حيرته الباحثة عن إجابة في سر اختفاء تلك
المنقذة، ومع أن الأراضي التي حرثت من جديد كانت واسعة ومنفتحة كما
السماء، لكن ضيق صدره كان يريد أن يحرره إلى نهاية تكون فتاته موجودة
فيها وببسمتها الأولى الخالدة. وما لم يتوقعه بعض الفلاحين ممن كانوا في
المزرعة التي تعود لأهلها، ومن مزارع أخرى، أنه وقف في منتصف أرض كانت
قريبة من دارها، وأطلق صيحة طويلة أفزعت كل من كان يتنفس فيها، حتى
بدت الكلاب خائفة لا تدري أين تلوذ وقد أدخلت ذبولها بين سيقانها، ثم طارت
مرة واحدة كل الطيور التي كانت منتعشة بظل أشجار المكان، ورأى الأبقار وهي
تهرب نحو جهة معاكسة لصرخته التي لم تنته حتى مجيء الفلاحين نحوه
ركضا، لمهرب هو بعدما أفرغ صرخته في ذلك المكان، دون أن يوقظ من جاء
لأجلها.

مساحة الشتاء شاسعة ورائعة، هكذا قال حينما كان في الواجب بعدما التحق وذهبت إجازته تلك إلى الماضي بكل ما كان فيها، وكما الإجازات الراحلات. ففي الساعتين تلك، شعر بالبرد يلامسه، كذلك الظلام صار يصطبغ بعتمة أكثر من ذي قبل. ففكر ألا يكون وحيدا مع الساعات التي سيكون فيها مع الليالي ببردها وأمطارها وضبابها وكل السحر القادم مع الشتاء، فقرر أن يجلب معه مذياعا صغيرا جدا، يعمل ببطارية واحدة من الحجم الذي يشغل ساعة جدارية، وبالإمكان وضعه في أي جيب من جيوبه وتوصيل سماعة إذن به كي لا يراه أحد من سرية الأمن الذين منعوا دخول أي من تلك الأجهزة واعتبروها أغراض تجسس. أما بقية الليل، فقد عاد الجنود لكتبة إلى غرفة منامهم بعدما تلطف جوها وصار ممكنا العيش فيها وإعداد الطعام وكذلك النوم، كذلك يتم نقل الراديو الخاص بالتوجيه السياسي الذي يربط كل صباح بمكبرات الصوت للاستماع إلى افتتاحية اليوم الجديد من إذاعة بغداد، اتضح له كما تصور بأن الليل في الغرفة تلك هو أفضل الأماكن التي سيقضي الشتاء فيها، وأن الإطالة لعالم البرية سيكون بصور مختلفة أخرى، فكان متحمسا لخلق منفذ له للولوج عبر الشتاء ويجعل منه زمنا ذا قيمة. فقبل أن يصير جنديا، كان يتمثل له الشتاء قصة حب تعود حينما يرى طيور الزاغ

المهاجرة وهي تأتي عبر دول لا يدري ما هي، تلك الطيور السوداء التي تنقط السماء كل عام، ولا يمكن عدّها، كانت وما تزال بالنسبة له ارتباطاً بينه وبين الشتاء، حتى انتهى بتسميتها: روح الشتاء. ومن شدة ولعه بهذا الموسم، وكرهه للصيف، فقد كان عامر يسجل هو الآخر في ملاحظاته حول كل تفسير يطلقه صديقه عن حالة الطقس. فحينما تكون السماء مليئة بالغيوم الرمادية التي لا تمطر، ويكون البرد معها خرافياً يتوغل الجسد كأنه ثغرة كاملة. كان يقول عن هذا الجو بأنه ينفع حبيبين متخاصمين، فالكثير من الناس في هذا البرد تحتاج للدفع، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بقلوب محترقة بإمكانها أن تذيب القطب الشمالي كله. وحينما تستمر الدنيا بالمطر كل الليل ويصحو الجميع وقد ملأ الوحل كل الدروب، يقول إن ذلك الحال ينفع حبيبين مستجدين وسعيدين بحبهما، وفيهما طاقة أن يقفزا في هكذا وحل لمدة ألف عام. أما في الصيف فقد كان يكره حتى نفسه، ويصف الحر لعامراً بأنه رجل فاشل لا يحب الناجحين. صار يستمع إلى الراديو في غرفة المنام الفارغة، إلا من مكتبة تمتد رفوفها إلى السقف، وتمتلئ بأضابير قديمة فيها كتب منذ بداية التسعينيات، وسرير حديدي واحد، ينام فيه أي جندي حينما يجده غير مشغول. كذلك كانت الخزانة التي جلبوها من مجموعة خردة متروكة لأجل حفظ الأرزاق الجافة. لم تكن الصداقة هي مجمع أولئك الكتبة وهو منهم، بل الاشتراك في الأزمة التي تدوم لعام ونصف على كل خريج كلية. وليس أمامهم سوى الاتفاق على تمضية الوقت معاً من أجل عبور المرحلة لا أكثر. كان بعضهم مثله يحب الاستماع إلى الراديو في الليل، بعدما ساهم أحد الجنود العاملين في مكتب

التوجيه السياسي بجلب الراديو على مسؤوليته إلى الغرفة من أجله ومن أجل البعض، وآخر الغوص في أعماق الليالي في الاستماع إلى أم كلثوم، كانت معظم الإذاعات العربية تبث صوتها منذ بداية انتصاف الليل ولساعة كاملة. أما هو، فكان صوت أم كلثوم يبث بداخله إلهام الكتابة، وصار وقت تدوين يومياته المفضل هو حينما يستمع لصوتها، بل وصار الجميل في المشهد المستجد هو الهدوء الذي يسيطر على الغرفة وهو يشاهد الجنود منهم من هو غارق في نومه، ومنهم من يشرب الشاي وهو سارح على صوت الأغنية. فكتب في محاولة تنبؤ عن المكان الجديد بأنه يتوقع أن يكون الزمن فيه محملاً كما الغيوم التي ستأتي مع الشتاء، محملاً بمراهم علاج للروح التي أتعبها مشوار الجيش منذ البداية وبين الحرب ببعضه وتعرقه وقذارته. وإنه يأمل بهذا العالم الصغير أن يتجرد من كل القبح الذي يحيطه، وأن يحاول السفر عبر روحه إلى عوالم يتذوق فيها الجمال كما لو أنه ليس جندي، بل كشخص راوده كابوس أنه صار جندياً، فعلق بذلك الكابوس رغماً عنه. قاطعه وهو يكتب ذلك أوس، حينما أنهى واجبه للتو، وأبلغه شاكيًا بأن علي وسي قد خدعه حينما سلمه الواجب، فقد غير في الساعة وقدم الوقت ثلاثين دقيقة، ليوظف أوس ويسلمه البندقية والجمعة. لكن أوس اكتشف الأمر بعدما ذهب إلى الجندي الذي يليه في الواجب والذي اعتبر أوس بأنه مخادع قد غير الوقت. كان الأمر بحقيقته هو قيام علي وسي باستعارة ساعة أوس حينما بدأ واجبه، من أجل تمرير خدعته، وتم الأمر بكل نجاح، لكن ساعة الجندي الآخر اكتشفت الحقيقة. كان يستمع لأوس وقد انضحت على وجهه ابتسامة استغرب منها أوس، بل حتى

استهجنها بعدما قرأ أوس عبارة منها تقول عنه بأنه غبي انطلت عليه خدعة علي. لكن التوضيح لم يكن كما فهمه أوس، فبعدما دعاه إلى شرب بعض من الشاي معه، قال لأوس بأنه وجد فكرة يريد نقاشها معه، وهي على علاقة بالأمر كله. فأجبر أوس على انتظار اكتمال الشاي، ثم تحضير الأقداح، وإخراج السكر من الخزانة، ثم قال له بعد كل ذلك: لقد نجح علي وسمي في تعليبك بالزمن الذي صنعه لك، وأقنعك بفرضية ساعتك، بل حتى إنه أطال زمن واجبك نصف ساعة إضافي، مع قناعتك بأنك قد أمضيت ساعتك الواجب بكل حواسك. فلم يجبه أوس، بل استمر بشرب الشاي حتى آخر رشفة منه، ثم قال له: الجواب تجده عند ابن وسمي. ثم تركه واتجه نحو الفراش. أما هو، فقد كان يريد توضيحاً حقيقياً عما جرى، وهل بالإمكان أن يقوم بتقديم الزمن ستة أشهر، نصف سنة كما نصف ساعة علي، يخدع بها أيا كان فينهي خدمته، فقد تصور وهو يكتب ما تصوره، بأن الزمن هو خدعة افتراضية، تستهلك من الإنسان حياته بوضع عداد لسنينه من أجل أن يستسلم للعدد الكبير الذي يبلغه عمره، تحت وصف الشيخوخة، مع أن روحه هي نفسها التي عهدها منذ بدأ بتذوق الحياة، تحت وصف الشباب. ثم ترك القلم وسط دفتر يومياته وقد تذكر ما قاله عامر ذات يوم في الجامعة، بأن الفنانين والأدباء هو وحدهم من يستمر شبابهم حتى وإن وصلوا من العمر لمليون سنة، لأنهم وحدهم من يتجاهلون هجمات السنين. فأكمل بصوت مسموع: بل وحدهم من اكتشف تلك الخدعة الافتراضية يا عامر، وعلي وسمي هو منظرها الفعلي.

سبعة أيام مستنسخة وكأنها كانت يوم واحد، قضى فيها الإجازة برتبة لا مثيل لها، فكانت الليالي مظلمة بعدما غادرتها الكهرباء ولم تعد تأتي إلا دقائق ثم تمضي. كانت كل ليلة عاشها في إجازته يتحسس الراديو، ويجلس عند طاولته يتلمس كتبه التي يحفظ عناوينها بمجرد أن يلمس أغلفتها. كل وده كان لو أنه يكتب شيئا، أو يستمع لأي شيء حتى لو كانت نشرة الأخبار التي كانت البلاد تصدر كل نشرة عربية أو عالمية، لم يكن يأبه لو أن فرق تفتيش أسلحة الدمار الشامل قد وجدت شيئا، أو إن العراق قد تعاون معها، ولا حتى كل تقرير نهائي يقدمه رؤساء تلك اللجان عن امتلاك البلاد لأسلحة التدمير تلك. فالمشكلة ليست مشكلته مطلقا مع العالم. بل مشكلته هي توقف الزمن في أتعس مكان في الحياة، ومشاهدة السنين وهي تذوي عند منعطف الشباب. فكانت أزمة إهدار الوقت في عسكرية عبثية تعود كلما استقر عليه الحال في أي جانب. علاوة على الوضع البائس الذي منعه حتى من السهر أو القراءة أو حتى رؤية مصباح مضيء في غرفته. فكان النوم يذهب به دون علمه بعد أن يخترق عينيه الظلام الصامت وهو متكئ على مخدته التي ضاعف سمكها بطيها. فانهت الإجازة حينما استيقظ صباحا ليتذكر أن عليه النهوض من أجل الالتحاق. كانت السماء غائمة حينما خرج من البيت الساعة الثامنة صباحا، والأرض موحلة من مطر الليل، فركب السيارة بينما كان الضباب ينتشرو يغلف

الطرقات، فتصوره أيامه كما البداية هذي: ضبابية لا يرى فيها أي شيء. وكان الثعلب يضيف في وجوده لمسات التعاسة لدى الملتحق الحزين. لكن لقاءتهما قد شحت جدا حتى في مكتب العمل، فالبرد الذي ينتعش فيه، كان الثعلب الذي يعتبر من عشاق الصيف، لا يحتمل دقيقة ارتجاف واحدة من البرد. فكان يلوذ إلى أي مكان فيه مدفئة. وأغلب أوقاته صار ينفقها عند عبيد الذي يمتلك مسخنا كهربائيا حلزونيا طوله ستة أمتار، وكان يجانب به كل جدران غرفته فتكون في ربع ساعة فرنا في أشد ليالي الشتاء بردا. كان الجميع يقولون حينما يرون ذلك المسخن بأنه هو السبب أزمة العراق الكهربائية، وأن على أحد إبلاغ السلطات من أجل إلقاء القبض على عبيد لإهداره طاقة البلاد في غرفته. هكذا صار يقضي وقته خلال العمل، وحيدا في المكتب البارد، يطل عليه الثعلب وقد تحول إلى رجل من معاطف كثيرة قليلا ثم يرحل. صار مكان الواجب الذي أنفق ساعات كثيرة من ليلاليه في الفناء الخلفي للوحدة، يقضي ساعتیه في ممر طوله ثمانية أمتار ومترين عرضا، مضاء بمصباح في نهايته، فبدأ يأخذ الكتب معه عندما يكون الواجب في بداية الليل، أما في الواجبات التي تكون بعد منتصف الليل، فقد فكان يأخذ الراديو الجيبي ذا سماعة الإذن. كان يتابع المطر وقد بدأت السماء بإرساله الساعة الثامنة والنصف، مع رياح شرقية باردة أخذت بالازدياد، أجبره ذلك المشهد وهو الوحيد في الممر الضيق أن يستمر بالنظر إلى انهيار المطر، ثم مد يده على بعض حبات تسقط بين راحة كفه. كتب بعدما انتهت الساعتان وهو يستمع إلى أغنية ليل العاشقين لجورج وسوف في غرفة منامه، بأن له قصة عريقة مع الشتاء، لا

يدري بها أحد غير عامر، ومن مررن بحياته وهو يحكي لهن عن استماعه لموسيقى لا يقدر أن يعزفها حينما تمطر الدنيا، لكنه بصوته كان يعزف لهن ما كان يسمعه حينما تمطر، قال في يومياته: كلهن قلن بأني صوتي جميل حينما كنت أعزف به موسيقى المطر، وفي الحقيقة كنت أحسب أنهن يجاملنني، ويفدرن كثيرا مشاعر أحدهم وهو يعزف لهن بصوته شيئا لم يسمعه قط، لكنني تيقنت بشهادة أستاذ في الجامعة، حينما اقترب منا أنا عامر وقال: إن صوتك حلو. فلم أستطع إجابته لأنني لم أكن أدري بأني صوتي كان بإمكان أحد غير عامر إن يستمع له، لكن عامر قد أكد لي بأن صوتي كان مسموعا من القرييين منا. كان يكتب ذلك عند الساعة الحادية عشر ليلا، يتخلل الهدوء صفير إبريق الشاي الذي أعده لغرض الحصول على الدفء، والاستمتاع بليلة من ليالي الشتاء. وفي الصباح، وجد أن الضباب قد عاد مرة أخرى وبقوة أكبر، فكان يغطي كل شيء، ويحجب الرؤيا عن كل شيء، مع برد قال عنه الثعلب بأنه يشيل العقل من الرأس، وربما سيقتله، فتمنى موت الثعلب وهو ينظر له بنظرة المتمني لعدو موتا زواما عنيف، فانتبه له الثعلب قبل أن يرحل وسأله عن سبب نظراته الغريبة له، فقال له: تصورتك ميتا. فلاحت في وجهه علامات غضب مثل تعرج حاجبيه وظهور تجاعيد جديدة فوق جبهته، ثم اقترب منه وسأله: ماذا قلت أيها البروفيسور؟ فأعاد ما قاله مع إضافة جديدة كانت بأن يكون ذلك في أسرع وقت، فالشتاء يعذبه كثيرا، بينما يكون الآخرين أكثر سعادة كلما كان البرد أشد. فقال الثعلب بأن المعتوهين أمثال البروفيسور هم من يفضلون ذلك، أما بالنسبة لموته، فقد أجاب بأنه لا يفكر حاليا به.

فالثلاثين سنة التي قضاها في الجيش لم يخطر على بال الموت اسمه. كان الضباب قد استمر لسبعة أيام هنا، رآه كيف يتشكل عند منتصف الليل، في واحد من الواجبات، حينما يتكون بهالات حول المصابيح، ومع الفجر كان يرى كيف يتحول إلى اللون الأبيض الكثيف، وهو يغطي الأماكن كلها. لكنه بعد كل ظهيرة، كانت الشمس تستيقظ متأخرة فتبدأ بقشعه، ويبدأ هو بمشاهدة الحياة بصورتها الجليلة، عندما كان يطل من خلال النافذة إلى ما خلف البناية، ويشاهد طيوراً صغيرة بيضاء ذات أرجل طويلة لم يعرف ما اسمها، ومن أي مكان هاجرت لتأتي إلى هنا. وهي تمشي في برك مياه المطر، كان مشهد الطيور الجديدة التي لم يكن قد رآها أو انتبه لها من قبل، يثير فيه حاجة قد صرح بها لأوس الذي لم يكن مكتراً البتة، فقد قال لأوس إنه بحاجة لدليل الطيور التي تعيش في العراق، كي يعرف أسماء الطيور الجديدة، فقال له أوس بأنه بالإمكان معرفة أسماءها من خلال كبار السن، لكنهم كما نوه له يعرفون أسماءها المعتادة هنا، وليست أسماءها العلمية، أو عن طريق كلية العلوم، فهناك بإمكانه الاستعانة بمدرس مختص بمقدوره إرشاده إلى أين يذهب. وعند الساعة الثانية ظهراً، حينما تم استدعاء الجنود لاستلام رواتبهم الضئيلة، بينما كان هو ينتظر دوره، شاهد مجموعة من اللقالق تحلق فوق المبنى، كانت قريبة وتدور بهدوء، وتبدو واضحة جداً في السماء الزرقاء الصافية كما لو أنها كانت بجواره، فقال لأوس وهو يعرف بأنه ليس يهتم لأمر الطيور: اللقالق طيور هادئة، وتبدو من طريقة تحليقها بأنها مسالمة ووديدة. لكن أوساً مشغول بعد راتبه، وذهب دون أن يرد عليه.

رأى نفسه ذلك المبتدئ البائس الذي لا يجيد تفسير الأمور كما هي بصورتها الحقيقية، بل ووجد أن كل التفاسير تبقى منقوصة ودون أن تكتمل حتى تأتي اللحظة التي تضع حقائق أخرى. فضربة الثعلب الأولى التي ظن بأنها لم تكن من متمرس رأى حروبا وهجومات وانسحابات كثيرة، بل واعتبر الأمر نقطة له حينما أسماه الجميع البروفيسور، والثانية التي حصل فيها الثعلب على كتاب شكر بجهود غيره. ففي صباح الالتحاق الذي كانت سماؤه رمادية، والبرد يعصف بكل الطرقات التي تقوده إلى الفيلق. كان قد وصل إلى الفيلق ليجد أنه تم طرده من العمل بمكتبه من قبل الثعلب، ولا يريد حتى رؤيته. لكن الجنود معه من الكتبة أخبروه عن نقاشات دارت قبل إجازته بينه وبين أوس، وأن بعضا منها قد وصل إلى الجميع في الوحدة، فكان أول شيء فعله الثعلب هو إبعاده من العمل معه. كان يدري جيدا بأن أمر الطرد قد نزل إلى الثعلب من السماء، لكنه سيقبل بذلك لو أن النهاية قد وصلت لهذا الحد، فما قاله الجنود له بأن الفكرة التي وصلت للضباط هي بأنه يحمل فكرا شيوعيا، ولديه أطاريح تنافي مبدأ المجتمع الديني، كانوا يقصون له ما جرى خلال السبعة أيام التي كان فيها مجازا، وأن أمره فيه من الصعوبة ما لا يمكنه اجتيازه بوقت قصير، إن كان فيه اجتياز طبعاً، كانت الساعة الحادية عشر صباحاً، حينما

كان مع الجنود وهم يحكون له عن الجلبة التي حصلت بسببه، فدخل وقتها ضابط الاستخبارات، العقيد طالب، ذو الوجه الغاضب دائما، فرمى أول ما دخل أنظاره إلى الجميع، ثم سأله إن كان هو من يسمونه بالبروفيسور، فتلقى إجابة الإيجاب ممن يسمونه بذلك، ثم جلس الضابط عند الطاولة وبدأ بسؤال بدا منه بداية تحقيق حينما قال له بأن يخبره باسمه الحقيقي، ثم سأله عن أصله إن كان مسلما أو غير ذلك، فأجابه عن اسمه، ثم أكد له بأنه مسلم. لكن الضابط لم يكن مقتنعا بإجابته عن كونه مسلما بسبب ما وصلت له من معلومات، وأنه يريد فتح حديث ديني يتحدث فيه الطرفان كل وقناعته عن حقوق المرأة، فأدلى الضابط دلوه برأي شرعي عن الواجبات والحقوق، لكن اتفاق الآخر معه جعل الضابط يقول له ألا يستحمر معه، وألا يناغم مشاعره بذلك الاتفاق، بل أن يجيب بما يؤمن به هو، عندئذ أخبره بأن كل الأخبار التي وصلت إليه كانت مغلوطة، وعليه أن يتأكد من أن المخبر لم يكن بمدى الفهم كي يوضح للآخرين ما كان يتحدث به، فنهض الضابط من مكانه للمغادرة، وتاركا له موعدا معلقا سيجمعهما معا في القريب، وخوفا من الحجم الكبير والمقلق في قلب البروفيسور، إذ أن الأمر كان حقيقة مجردة لا يمكن للخيال أن يلونها على أنها مجرد سوء فهم، بل هي شخص يحمل أفكارا ممنوعة في مؤسسة خطيرة، يحكم معتنقها بالإعدام، فيتحطم بذلك كل شيء أشد حطام. بل ويحرق صاحبها ثم يذرى رماده في أي مكب نفايات. وفي المساء، حينما كان يفكر بأمره وهو في الواجب في الممر الضيق الممتلئ بالبرد والقلق، أخبره أحد الجنود بأن ضابطين بدرجة عقيد أيضا يريدانه فورا في غرفة

المنام، فوجدهما بانتظاره من أجل محادثته، بدأ أحدهما بإخباره عن الأفكار التي وصلت إلى الضباط وأحدثت صخباً في المكان كله، وعن التسمية التي يطلقها الكل عليه بدلاً من اسمه، فقاطعه بأن التسمية تلك كانت اتهاماً مسبقاً له أكثر مما هي كنية، لكن الضابط تجاوز مقاطعته وصار يتحدث عن القيمة العليا للدين، ثم شتم أفلاطون ووصفه بأنه مجرد رقاع أحذية حقير. وفي الأثناء تلك، جاء بلاغ للضباطين بطلب الأمر لهما، فغادرا على أن يكملامعه الحوار بوقت قريب أيضاً. أما هو فقد كانت الكوابيس تحتشد في منامه فتوقظه كل دقيقة أو دقيقتين. توقف عن كتابة اليوميات، وفكر بإحراقها كي لا تكون دليلاً يعترف عليه بأنه يفكر، فقال وهو يفكر بصوت خافت: يجب أن أحرق اليوميات، فهي الدليل الذي يثبت بأنني كائن مفكر، وهنا، بل في كل مكان في هذي البلاد، على المرء ألا يفكر، بل يجتر ذكرياته، أيامه، حياته كله، يجترها مثل أي خروف بليد. وقرر بعد نهاية الواجب أن يتجه فوراً إلى دفتري ويلقيه في أقرب نار. وتمنى القفز من هذا الوقت المتصلب إلى زمن أكثر مرونة، وفكر طويلاً كيف أنه سيطر على ما مر به وهو يشاهده كشريط أحداث مصور في ذاكرته، وقد تحول إلى جزء من الماضي الذي لا يعود. وفي الرابعة فجراً، عاد مع قراره في التخلص من الدفتر الموجود مع الكتب في حقيبته الحبرية مع الكتب التي كانت في الدرج بمكتبته المطرود منه. قرر إحراقه على المسخن الكهربائي المحفور على قطعة ثرمستون في غرفة المنام، وفي النظرة الأخيرة إلى دفتري، رأى نتوءاً لامعاً يبرز من بين أوراقه، كان المفتاح الذهبي الذي فقده، ورغم محاولاته في تذكر كيف جاء ذلك المفتاح إلى الدفتر، لم يقدر التوصل إلى خيط

ذاكرة واحد يوصله إلى تفكيك لغز نسيانه، كان ذلك المفتاح الرسالة الجيدة التي أقنعت بالعدول عن إحراق دفتر اليوميات، واعتبر كما كتب حينها، بأن الأمل الذي كانت تزوده تلك الفتاة في وقت من أوقاته العصبية، هو نفسه قد بُعث إليه بطريقة قدرية لا يمكن تفسيرها، فعصر المفتاح بكف يده بقوة خارقة ثم وضعه على قلبه بعدما أغمض عينيه. كان الضباب ينثر بياضه مع اقتراب النهار، فنفض من مكانه بعدما أعاد المفتاح بين دفتر يومياته، من أجل حلاقة ذقنه والبدء بنهار كتب عنه: إننا من يخلق النهاية لأنفسنا، ولطالما كنا نتنفس، فنحن ما نزال في البداية. رأى خوفه يغادره مع الضباب حينما أبعد شروق الشمس، وقرر مواجهة خاتمته بروح ذلك البدوي المستقر فيه، مع تجاهل الثعلب كما لو أنه نكرة لا وجود لها، ولحين مجيء طارق وذهاب الثعلب بإجازته، خطط أن يقضي وقت العمل في مكتب التوجيه السياسي مع الجنديين العاملين فيه، والذين كانا متعاطفين معه كما بقية الجنود من الكتبة، الأمر الذي جعله يعتقد بأن المخبر الذي أوصل أحاديثه هوجني متطوع في الحرس الجمهوري.

ممر الماضي السري

ما تمناه، كان هو أن يقضي الليلة الأخيرة للألفية الجديدة في غرفته، وينهي القرن العشرين في مكانه الطبيعي، كما ويبدأ القرن الجديد معه وهو بصورة الإنسان المدني الحر، وليس ذلك المرتدي ملابس القتال وترتمي على صدره جعبة الرصاص. إذ لم تكن أمنيته خارج الحسابات وبانتظار معجزة تذهب به إلى المنزل، بل عدم الثقة المطلقة التي يمتاز بها الجيش، ففي أي لحظة يحصل تغير ما، وإلى الأسوأ بالطبع. وبقي المثال راكسا في ذهنه بجنديين طلبا إجازة ليوم واحد فقط أيام المكان البديل في معمل العلف، كل ما أراداه يوم واحد فقط، فخيرهما عبيد بالانتظار إلى الغد كي يساعدهما بيومين إضافيين بدل اليوم، فقبل أحدهما ورحل الآخر، وفي اليوم التالي جاء أمر الانتقال إلى الفيلق، وألغيت حتى الإجازات الدورية لذلك اليوم فسمع الجندي الذي قبل الانتظار وهو يقول: اليوم تعلمت المعنى الحقيقي لعبارة عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة. كانت تلك نقطة الخوف التي كان يخشاها في مجيء تغير ما، وترقب اللحظة التي يستلم فيها نموذجة قبل يومين من رأس السنة بكل حذر، حتى تم الأمر وترك كل ما وراءه من فوضى الأربعة عشر يوما التي تشظى فيها بسبب اتهامه وطرده كضربة في الزاوية القائمة التي سدتها قدم الثعلب. ترك كل شيء وعاد عبر المسافات تضرب به الرياح الجنوبية

الشرقية التي استغرب من شدة بردها وقد ألفها دافئة تجلب المطر. لم يكن حافلا بكل أيام إجازته بقدر ما كان يريد الشعور بالدفع والاستماع إلى الراديو وقراءة شيء من كتبه في الساعات الأخيرة للقرن، فحاول في النهار ما قبل الأخير كتابة رسالة لفتاة قد رآها وهو يغادر محل عزيز المصري، لكنها اعتذرت عن أخذ رسالته في غروب ذلك اليوم حينما اتصل بها من أجل إعطائها الرسالة، وقالت له بأنها أصبحت خطيبة لأحدهم ولا يمكنها المواصلة معه، فتذكر القصة التي كتبها حينما كانت علاقتهما في أوج روحها وقد أسماها عذرا أيها الربيع، فأخبرته بعدما قرأت القصة بأنها تحكي عن عطشه هو، والشاب الأسطوري الذي كتب عنه سينبثق في أعماقه كلما استفاقت مشاعره مدخل كل شتاء، وكلما شاهدت عيناه غماما يحمل الحزن مع المطر. كانت قصة عذرا أيها الربيع قد أرشف فيها بعضا مما جرى مع تلك الفتاة، وكتب أجزاء كثيرة من الحقيقة فيها عن نفسه، ووثق فيها بعض الاعترافات، فبعدها أعطاها القصة المكتوبة بخط يده، غاب عنها، وانتظرت له لتخبره رأيها الذي طالها هوبه حينما سلمها إيها، وبقيت في محطة انتظاره حتى أعادت قراءة القصة مرة أخرى، فكانت تجد أجزاء الحقيقة المبعثرة وقد أعادت ترتيب نفسها، لتجد في الأوراق الستة تلك، من أحبته وقد بدأ يخبو، ويضمرو ويصفرو ويذبل. فالبطل الذي كان يعاد شبابه كل شتاء، يبدأ الحب فيه بالنمو لفتاة واحدة جميلة، فتكون الليالي الباردة راعيا لذاك الحب حتى يبدأ بالنمو فتشتبك أغصانه الليانة مع بعضها، ثم يزهر ويملاً الدروب بعطره، لكن مع نهاية كل شتاء،

يشرع بالاصفرار كما لو أنه في منتصف الخريف حتى ينتهي كما أي شجرة ولحين شتاء جديد، مع فتاة أخرى. بغد غيابه الطويل لم تقبل رسالته التي كتبها لأجلها وفيها شرح مطول عما يعيشه، لكن الرسالة بقيت داخل الظرف المغلق، في جيب معطفه الأسود إلى الساعة الثانية عشرة، بعدما شعر بأن البرد لم يعد المتفهم لمشاعره، مما جعله يقرر العودة إلى المنزل، وباشربسهرته، مع تأجيل كتابة يومياته إلى الغد، في آخر يوم من القرن، حينما وجد نفسه في آخر ساعتين منه، في العاشرة ليلا، ليكتب بأنه في آخر ساعتين منه سنة، بل ألف، ستتغير الأرقام التي يؤرخ فيها يومياته، وذاكراته الكثيرة التي حفرها على جذوع أشجار حدائق الزوراء، وكل مكان أسرف فيه من المتعة الكثير. فتساءل على الورق عن كيفية مرور هذا الزمن، وعن الأوجاع التي ذاقها الناس، وكيف كانت ليلة الألف الأولى، وهل أحد مثله كان عبر ألف سنة رحلت، كان كما هو الآن. تساءل كثيرا وهو يكتب، لكنه وجد نفسه كما ذكر بأنه المحنط الذي دفنت بجانبه أوهامه كلها. كان اهتمامه الكبير بالألفية الجديدة صغيرا وغير مرئي بالنسبة لما كان يستمتع له عبر إذاعة أبو ظبي، فقد كان يتخيل السعادة من المتصلين وصوت الأجراس وهي تفرع مع الموسيقى، لكنه لم يكن ليرتك الاحتفال ولو مع نفسه. فكان يعيد عرض كل الأمانى التي ذهبت مع الرياح. تذكر الطفولة فكتب عنها كشيء لم يكن فيه أصلا، ثم الصبا المليء باللعب، لكن الشباب المغلق تحت نار الأمانى الحبيسة هو ما أثار حفيظته، فكتب عنه كأول شيء تصادره الحكومة في محكومية يقضها الشاب في الجيش. تخلق فيه شخصا غير الذي كان أول يوم. كتب عن الحب كنافذة رائعة تطل على خليج

السنين الأزرق. وتدخل فيها نسائم نقاء أجمل العمر. كان يسمي كل من التقاها باسم يميزها، بل ويناديها باسمها الجديد، فكان يسعدن كثيرا لذلك لاختياره أسماء غير واقعية لهن، فقد قرأ مرة مقالا حينما بدأ محاولاته في تطوير ذاته بعلم النفس، بأن أغلب النساء لا يرغبن أسماءهن، كونهن لا يرغبن فرض أي شيء عليهن في حياتهن، فكان يتوغل بخبث من تلك الثغرة من أجل إشعارهن يلتقيها بالسعادة، وبطريقة جديدة في مناداتها. تذكر وهو يكتب آخر أوقات القرن وردة السوسن، أول فتاة تبادل معها الرسائل حتى وصل عدد ما كتب لأربعمئة رسالة، فتعلمت بفضلها القراءة بشكل جيد، إذ لم تكن قد أكملت الدراسة الابتدائية حينما أجبرها أهلها الريفيون على ترك المدرسة. تذكرها بأوراقه بعدما شرب القدر الثالث من الشاي، حتى قال وهو يترك القلم بأن خطأه الوحيد أنه لم يتعلم الرسم، فقد كانت لها وقفة لا يمكن تصورها أبدا، وأي امرئ لا يمكنه حفظ جسدها حينما يستند على جذع النخلة التي كانا يتواعدان قربها. تذكر النورس. الفتاة المحلقة بحرية لا تمت صلة بوضع البلاد، رآها تحلق في سمائه حينما كان لوحده يسير في درب خالٍ، فألقت له تحية تحمل اسمه، ثم أعطت له موعدا كان وقته مع غياب الشمس، في اليوم التالي، كاتبته بأنها أرادت شبك أصابع يديها بشعره الأسود الطويل، فالغيرة أوشكت على قتلها وهي ترى الهواء يشتم خصلاته في كل الاتجاهات. كانت بمكاتبها تبهره ببلاغتها الغريبة، فظن بأنها ليست هي من تكتب له، بل امرأة أخرى أخفت حبا فانفجرت به. كتب عنها بأنها كانت مكتبة لها قدمان، وتيار يحمل ألف فكر، وفي رسالة من رسائلها الكثيرة، أخبرته بأنها ما عادت تطيق

ليالي الشتاء وهي تتذكره بعيدا عنها، فيكون البكاء رفيقها حتى الصباح، كان التعب يبدو جليا بهالات رمادية حول عينيها، كما وبدت حزينة وليست كتلك التي كانت تحلق في سمائه نورسة حرة، وباءت بالفشل محاولته حينما أخبرها بأي ساعة تريد رؤيته من أجل أن يخفف وطأة الليل عليها، فأخبرته بأنها ترغب أن يكون الساعة الثانية بعد منتصف الليل واقفا بمعطفه الأسود تحت مصباح الشارع المعلق بعاموده منذ السبعينيات، فحقق رغبتها بعد أن كاد يقتله برد شهر كانون الثاني الذي رأى فيه الدنيا بلا بشر، بل كان مشهدا حيا يثير عجب كل راكب سيارة يمر بقربه. كتب لها قصة عذرا أيها الربيع وهو يدري جيدا بأنها ستكون الملاذ الوحيد لها في بث الحياة بروحها المتسربة من جسدها، فغادرها بصمت كان يشعر في البداية بقوة كفه وهو يحكم قبضته على رقبته، لكنه كان على الأقل، بداية تجربة بالعودة لسريرها المتوج بالحياة، وأن الشاب الذي أحبته أسطورة يموت في الربيع، ويحيا في كل شتاء. تذكر، بل وكتب عن صوت السحر الذي كان يسمعه من امرأة كانت أكبر منه بخمسة أعوام. ففي اتصال أخطأ في ضغط رقم واحد مختلف، أجابته تلك المرأة بأن الرقم الذي طلبه ليس هو، لكن صوتها الساحر كان يوحي له برسم وجهها كما لو أن معادلة الجمال قد اجتمعت فيه. بدأت الاتصالات بينهما بتحايا رسمية، ثم بعد أسئلة منه ومنها، تحولوا لقصائد الحب الخالدة، وللمرة الأولى، وجد أن اختراع الهاتف كان حاجة عاشق لا أكثر. لكنه وإلى النهاية، لم يوجهها أبدا، وهي التي كانت تصف له كل شيء فيه حينما كانت تمر من قربه دون أن يدري، حتى استسلم لرغبتها بمقولة كان يخادع فيها نفسه: لا يهم أن أراك، فالمهم أنك

تريفي. إلى النهاية، حينما اتصل به رجل لم يعرفه أبدا، وطلب منه أن يتوقف عن الاتصال بها، مقابل انقطاعها عنه وإلى الأبد. ومن بين هبات رياح ذاكرته في ليلة القرن الأخيرة، لاحت له الغزال، الفتاة التي قال لها مليون مرة أحبك، ولم تسمعه بمثلها لومرة واحدة، كانت مثله تحب المشي تحت المطر، اختلفت معه بصمتها الكثير الذي تساوى بحجمه مع كثرة كلامه، فاكتشف في نفسه منذ ذلك اليوم صفة الثثرة التي لم يكن يشعر بها، ليقترح لها بأن يفترفا لأسبوع وقيّما الحب الذي بينهما، فتحول الأسبوع إلى فراق ظهرت فيه إوزة مزرعة تمشي أمامه، لكن صديقا قال عنها حينما رآه معها: بيني وبينك، لولم تكن نعجة تائهة ما سارت مع راع مثلك. كانت تشبه مخدته العالية التي كلما غفا ورأسه عليها يستيقظ ورقبته تعذبه من الألم. والمختلف فيها عن قصصه الحزينات، أنها كانت مرحة وتحب حكي النكات، ولأن مزاجه لم يكن على حد سواء مع الأيام، انفعل بوجهها ذات مرة وقال لها: هذه النكتة سمعتها منك ثلاثة مرات، ومضيعة الوقت هذه لا تليق بفتاة مثلك. وما لم يكن يتوقع أن يسمعه، أنها قالت له بأن شكله الجميل يبعث على السعادة الدائمة، لكن ما اكتشفته فيه، هو أن ثمة حطام طاف فوق أمواج حياته، حاولت هي إخراجه كي يكون سعيدا من كل جوانبه. ورغم اعتذاره، هجرته وكانت تعذبه كلما شاهد قفاها فيرى فيها الإوزة التي تتعمد في تمثيل مشيتها وكأنها إوزة مزرعة حقيقية سعيدة وليست بحاجة. كانت الساعة تقترب من إعلان الألفية الجديدة بدقائق معدودة، وهو لم يكمل سرد ذاكرته، لكنه في الورقة الأخيرة قال بأن العمر صفحات، وأقرب بأنه لم يحتس الخمريوما، لكنه من خلال من

التقى بهن، كان يرى المخمور فيما يحتسي. وختم أوراقه الخمسة والثلاثين بأنه الآن لوحده في غرفته، يستمع لأغاني أعياد الميلاد، وله رغبة في السير الآن بطرقات المدينة، مع أي من كتبه في أوراقه، أي واحدة تمن عليه بدقائق يمشي معها فيدخلان الألفية الجديدة معا.

برياح عاصفة كانت تضرب صدره، دخل بوابة الفيلق التي تشبه بوابة عشتار، وبلون رمادي، ليقطع المسافات الطويلة في التحاق جديد، وبمنتصف الدرب، بدأت حبات مطر باردة وسريعة تضرب بوجهه وكإعلان ببء الغيوم التي تمتد حتى الأفق يبعث رسائل الشتاء، لكنه تأمل عبر المسافة التي كان يقطعها قطعة الأرض المزروعة قمحا وقد بدت مخضرة بزهو، أعادت بذكرته إلى وجهها الذي رآه أصفر حينما كان قمحها محصودا أول أيام دخوله الفيلق. وأول دخوله لهذا الالتحاق وجد اسمه بقائمة الواجب قد تم إدراجه لحراسة السجن، وفيه ثلاثة سجناء محكوم أقل واحد فيهم سنة كاملة. وسمع من الجنود بأن أحد السجناء خطر ومستعد لفعل أي شيء من أجل أن يهرب حتى لو قتل أحدهم، فصدق ما سمعه حتى لو كان الجنود يتقصدون إخافته من أجل تضيقه أكثر مما هو الآن ضائع، فما يزال مطرودا، وطارق ذهب بإجازته. فسّر أمر إدراج اسمه بقائمة حراسة السجن بالعمل المدبر، بدون أي شك، و لا يمكنه الاعتراض بسبب قضيته المعلقة التي يريد دفنها شيئا فشيئا مع مرور الزمن، ففضل التزام الصمت من أجل ألا يثار أي شيء عنه. كان الواجب دوريا لكل ستة ساعات على مدار يوم كامل، فأجبره الخوف من تخيل تمكن السجناء منه وهروبهم على أن لا يسهو لدقيقة واحدة أثناء ساعات الليل، بالرغم من السجن كان غرفة أربعة أمتار في أربعة من البناء الإسمنتي الجاهز والقوي جدا

كما بناية الوحدة التي تقابله بعشرة أمتار فقط، وفي أقصى جدارين منه توجد نافذتان مربعتان صغيرتان كما نافذة غرفة منامه، وبابه الحديدية مقفل بإحكام من الخارج، يستلم مفاتيح أقفالها الثلاثة كل دورة واجب، ويسلمها لمن بعده، ولا يحق لأي أحد فتح الباب إلا بحضور رئيس العرفاء وثلاثة مسلحين حتى لو احترق السجن ومن فيه، كتب قبل واجب العاشرة ليلا بساعة كما لو أنه يكتب آخر شيء في حياته، حتى إنه تصور بالأغدى يأتي بعد هذا اليوم، ورأى أطول مسافة زمنية امتدت في حياته هي هذه الليلة، فكان ملتصقا بجدار السجن الأمامي قرب الباب والمطرينزل بغزارة، فانتبه إلى البرك التي تشكلت أمامه وقد ظهر فيها المصباح الموجود في بناية الأمرية، كان ضوءه المتموج بفعل قطرات المطر قد أثار فيه التساؤل إن كان هذا الوقت الذي تبلل فيه بفعل المطر، والترقب من تجربة جديدة في حراسة السجن والفراغ الذي فرضه الشتاء على الجميع في الوحدة بالتزام أماكنهم، أثار فيه تساؤلا إن كان كل هذا التناقض سيأتيه بصورة الحنين، فيتذكر المصباح في بركة المطر وهو يضيء قطراته. تساءل إن كان حقا سيمرزه الشوق إلى هذا المشهد الليلي، لكنه عزى سبب الحيرة هذه إلى السكون القابع داخل السجن، فمن فيه الآن مستدفنون ببطانيات عسكرية سميكة، والبقاء حاملين هنا أفضل بكثير من المجازفة في الغرق بالوحل المتوحش الذي يأتي مع كل الغيوم الممطرة. كان لا يسمع شيئا وهو يضع أذنيه على الباب، وكأن لا أحد موجود هنا، حتى عندما التف إلى الجهة ذات النافذة، وجد السجن مظلمًا، فجلس القرفصاء ليتابع مشاهدة المطر في البركة المعكوس فيها المصباح. في الرابعة فجرا، بعدما أيقظه الحارس

الذي قبله، وجد الدنيا ماتزال تمطر، فبقي جالسا قرب المسخن وهو يمد يديه ليتدفأ حتى مجيء الضياء، وقد خفت حدة المطر، برياح أقل عصفاً من الأمس، ليعلن في يومياته حينها بأنه اجتاز التجربة بنجاح تام، وبإمكانه اجتياز الألفية الجديدة كلها شريطة أن تكون الليالي كما الليلة السابقة. بكل ما كان فيها من مطر ورياح وبرد. كانت فكرة الانتماء تبدأ بالتحرك فيه كلما يأتي أمر الكتبة بالانسحاب من العروض بعد إكمال التعداد الصباحي للجنود، فكان ينسحب معهم مع أنه لم يكن لديه مكان يذهب إليه سوى مكتب التوجيه السياسي، فبعدما يتناول الفطور يذهب إلى هناك ويبدأ بالاستماع إلى فيروز، ثم يأخذ كرسيًا ويذهب به قرب النافذة كي يستدفي بأشعة الشمس، لكن تلك الفكرة كانت تنمو كثيرًا، فقد اعتقد وكتب ما اعتقده بأن عبيد يدري جيد بأنه لا عمل لديه، ولا يدري ما سبب تجاهل انسحابه مع الجنود الكتبة، ووثق خشيته بأنه لا يريد أن يتعرض أمام الجميع وفي ساعة الصباح الأولى إلى موقف سخيف من عبيد وهو يأمره ألا يذهب، ويبقى مع الجنود المشاة في إكمال أعمالهم مثل حفر المواضع العبثية أو التنظيف أو حتى رعي الخروفين اللذين أرسلتهما الحكومة كهدية للآمر. كان يخشى ذلك الموقف، لكن لا حل لديه سوى المضي بحالة اللا انتماء حتى لو استمرت إلى نهاية خدمته، حينها سيكون الانتصار المؤزر الذي سيخلده كل حياته، ولن يخوض بعده أي حرب من أجل الحفاظ على اللقطة الأخيرة والجميلة في معركته. قال له أحد الجنود: أستغرب كيف تحتل حياتك هنا ولم تهرب، ولو كنت مكانك كنت كفرت بكل الحرس الجمهوري وذهبت ركضًا نحو عالم الهروب حتى يجدوا لي حلاً أو أموت

وأنا هارب. فأجابه بأن المضي في المشي بالوحد يفضي إلى نهاية المستنقع وأن خريجا أكمل الكلية في أربع سنوات من المتعة عيب أن يهرب من أول مشوار تعب في حياته. حينما قال له ذلك انتبه إلى أمر غريب كان في كلامه، وكتب في آخر ورقة من دفتر يومياته تلك الملاحظة التي ذكر فيها بأن الأمر يستحق التأمل في آخر شهر من العسكرية. وفي الساعة السابعة ليلا، بينما كان يأكل وجبة عشائه مع الجنود، ناداه عبيد بأن يأتي حالا، فقاده نحو بهو نواب الضباط، المكان الذي فيه مطعمهم الخاص بهم، والذي صار فيه علي وسمي طباحا لهم، فكان يهرب نصف المقرر لهم إلى الجنود من نافذة المطبخ حتى أمسك به وتم طرده. ويحتوي أيضا على غرفة بطول عشرة أمتار صفت فيها أسرة للنوم لهم. فهم بأن عبيد يريد إنهاء حالة الخصام التي بين الثعلب وبينه، وأن يكون التراضي على طريقة الاعتذار، لكنه رفض أمر الاعتذار لأنه لم يسيئ له، بل إن المشكلة ليست معه، لكنه اقترح أن ينتهي الخلاف وتعود الأمور إلى مرحلة ما قبل الطرد، لكن الثعلب اشترط وأمام ثمانية نواب ضباط بأنه يقبل إعادته إلى المكتب شريطة ألا يدخل أي كتاب في أي درج فيه. فتقبل الأمر بالرغم من أنه اعتبره تنازلا كبيرا، لكنه من ناحية عظيمة أخرى، كتب بأن اتهامه بالشيوعية قد أذابه الزمن بالفعل، وأن إعادته إلى العمل فيه سيضع الغطاء السميك على كل ما مر به من تحقيقات واستجوابات مخيفة. كتب: بالرغم من عدم رغبتني بالعودة للعمل مع الثعلب التافه. لكن فكرة الانتماء في الحياة المضطربة للإنسان، هي أن عليه الانسجام مع كل المتناقضات، لا من أجل أن يتوافق فيها بالصفات، بل من أجل يحافظ على صفاته هو.

لم يكن يعني له آخر يوم من عامه العسكري شيئاً، بقدر ما اهتم بدخول شهر شباط، الشهر البارد الذي احتفل فيه مع نفسه بوليمة ذكريات كثيرة كتبها أو تلك التي تعلقت بذهنه في صور جليلة لن ينساها أبداً، لن ينسى أيامه الأولى التي استقبلته فيها أرض معسكر الحلة الإسمنتية المخفية تحت التراب، المعسكر الذي ما يزال حذاء الجيش الذي أعطاه إياه متمسكا بقديمه وعلى اتفاق مستمر لآخر يوم في الخدمة. اتضح له بأن من أفضل ما قام به هو تدوين يومياته، لكنه وحتى مرور عام كامل لم يضع لها اسماً لها يحمل عنواناً في بداية دفتره، سوى أنه أقحم كلمة مغفل كمفردة شريكة بالإجبار في العنوان الكامل لليوميات، فبقي دفتره يتقدم نحو الأوراق المتبقية منه في تدوين ما يمر بصاحبه، دون الاهتمام إلى الورقة الأولى، والتي بقيت فارغة بتجاهل تام. كتب بأنه اجتاز العام العسكري بأسوأ ما يمكن أن يصف الحال، وأن أمامه ستة أشهر لا يمكن له تصورها أن تأتي، لكنها العزاء الجيد في أنها ليست أطول مما مضى، أما مشكلته مع الزمن، فلم يجد لها تفسيراً منطقياً واحداً حتى حينما كان يدخل أوس معه في وضع بعض الأطاريح، والحل الحقيقي هو تجاهل الزمن الصعب واعتباره كما أي كابوس رغم أنه سيترك أثاره في الروح، إلا أنه سينتهي بمجرد مجيء اليقظة. وصل لذلك الحل بعد مرور سنة كاملة التفاصيل. ووجد

بأن وجوديته التي بالغ في عيشها كانت تحطم فيه، وعليه الانتقال إلى الحلم أو التجاهل أو العيش ببلادة مطلقة كي يمر تفسير الزمن ببساطة معه. لكن كل تلك الاقتراحات لم يكن يؤمن بها حقاً، وكلما حاول تجربة واحدة منها، عاد بلا إرادة إلى ماهيته الأولى، فيكتشف بأن طينته العجيبة لا يمكن تغييرها بسهولة، وفرن العسكرية ربما أحاله إلى شخص يتقبل مرغماً أو غير مرغماً الحياة الواقعية الخشنة، لكنه لم يجعل منه شخصاً آخر، ولم يغير أبداً من روحه المسافرة. ومما فاته، وتذكر بعدما مر الوقت طويلاً به، أنه كان في كل تأملاته يضع ما بين فرضة بندقيته وشعيرتها كل أوقاته الجميلة، وكان يشاهد بعين واحدة نصف مفتوحة حياته الحلوة التي أنفقها في السعادة والمرح، يشاهدها كهدف جميل مضى، دون إدراك إن ما فاته كان عليه وضع ذلك الزمن ما بين الفرضة والشعيرة، ولا يجعل حنقه الشديد على العرفاء المدربين في معسكرات التدريب التي اختنق فيها كثيراً، أن ينسيه سؤال أي عريف غبي سيفتح له نافذة تفكير جديدة: على من نسدد بعدما نغمض عينا ونفتح الأخرى؟ لكنه استوحد بعذاباته حتى صار يحتفل معها. ففي الرسالة التي وصلته من عامر وهو بعمق ألفي متر في الفيلق، عبر جندي يسكن مدينته قال بعدما شاهد دهشة خرافية سيطرت على وجهه بأن العالم صغير. فقال للجندي الذي سلمه الرسالة: بعدما أكمل قراءة رسالة صديقي عامر، سأناقش معك الجملة السخيفة التي قلتها والمكررة مليون مرة. ثم بدأ بقراءة كل كلمة مكتوبة بخط يد عامر الذي يشبه خربشات قطعة صغيرة حمقاء، فكان يطالع الشوق الذي بعامر، وحلمه في أن يكون ذلك الشيء الذي لا يعرف ما

هو إلى الآن، سوى أنه سيحيل من أحبهن، وقمن بصدده، إلى الكائنات التي قال له عنها: أشباح غير مرئية. وكتب برسالته أيضا عن بعض ذكرياتهما، وعلى أمل اللقاء بوقت أحسن. عاد إلى غرفة المنام دون أن يدري كيف هو، فقال بين الجنود السبعة الموجودين، والذين اعتادوه بكل خصاله الظاهرة كجندي حالم غير مقتنع ولا معترف بواقعه المزري هذا، قال بعدما رمى جسده على السرير الحديدي الوحيد: إن لحزني رائحة كرائحة البصل، ومذاق ورده الدفلى. فضحك بعضهم على اكتشافه الجديد، وأخبره أوس أن عليه توثيق ذلك بمذكراته. لكن الجميع صمت بعد بدء برنامج طائر الليل الذي يبث خواطرا وأشعارا حزينة في الساعة الحادية عشر من كل ليل، مع أغان هادئة جميلة. فشحن ذلك البرنامج حواسه لينهض ويبدأ بكتابة يومياته التي قال فيها بأن وجوده لم يكن بصورته الميتافيزيقية أبدا، حتى قبل أن يكون جنديا أرغمه القانون قضاء المدة الطويلة. لكنه كان يشعر بالطريقة الطبيعية لحياته كأى إنسان، أما ما فوق طاقة الإنسان، فإما أن يكون مدمرا، أو أن يكون التعامل معه بطريقة غير طبيعية، يقفز المرء فوق كل حالاتها، فيكون كائنا خارقا تقزمت أمامه كي الصعاب. ووثق أيضا، أن كل ما تنفسه من هواء عبر الشهور العسكرية، كان يؤمن بكل ما يكتبه فيها، ويعيش بما يكتب، ويكتب ما عاشه وآمن به. والدرس الذي طال عاما كاملا دون أي فرصة، منحه في ليلة عيد ميلاد الأول بالحرس الجمهوري، ذاكرة لحاء الشجر حينما كان يراه يحترق في ليلة التاجي الأولى، حينما غفا على نارها، ولما استيقظ بردانا، كان قد وجد بأن اللحاء قد رحل ولم يبق منه سوى رماد تركه كذكرى له، دون أن يتذكر ما

حلم به وهو قرب تلك النار التي كان يحطّ بها معه جنود آخرون. تمنى لو أنه أخذ بعضاً من ذلك الرماد، بل يأخذ بعضاً من تلك النار، تمنى كثيراً، بأن يكون كل شيء معه، من أجل إنعاش ذاكرته التي توغلت به إلى الصحراء بكل ذرات ترابها، في انتقالة لم يكن ليصدق أنها ستكون بيوم ما ذاكرة مطوية لا تحمل سوى رقم صفحة، ويقفز به الزمن المعاند إلى تألم جديدة، التقى فيه بمكسرة الزمن، الفتاة التي أهدى القدر وجودها الحلولة، كي يعادل مرارة وجوده فيها، لكنها اختفت بمثل ما جاءت، رغم الصرخة التي استفاقت فيها كل خصائص مكانها، وكاد أن يُقتل هو بمساحي الفلاحين حينها، دون أن تظهر هي.

في واجب الساعة الثامنة ليلا، كان أول ما فعله إسناد بندقيته على الحائط، ثم فرش أرض الممر المتسخة الرطبة بورقة مقواة كي يجلس عليها، وبدأ بقراءة مسرحية الليلة الثانية عشرة لشكسبير، والمبتدئة بجملة: إن تكن الموسيقى غذاء الهوى، فامضوا بعزفها. وفي هذه الأثناء، جاءه يوسف لقضاء بعض الوقت معه، فاتفقا على سهر الليلة معا بعد انتهاء الواجب. كانت البداية لسهرتهما هي الذهاب إلى الحانوت بعد انقضاء ساعتي الواجب لمشاهدة أي شيء في التلفاز، لكن الغيوم الرعدية التي وصلت قبل أن يذهبا بدقائق قليلة، بدأت بإنزال مطرها الغزير حتى ألحق ضررا بأسلاك الكهرباء الداخلة للفيلق، وبالتالي انقطع التيار عن كل مكان، فساد الظلام المتقطع بوميض البرق. كان المكتب هو المكان الآخر لمواصلة الجلسة لليلة، والتي أعادا فيها شريط الذكريات الأولى تحت وقع الرعد والمطر الشديد، وشرب الشاي، والاستماع لموسيقى طائر الليل حتى انتصف الليل الذي توقفت عنده السماء عن المطر، ليذهب يوسف إلى وحدته بين الظلام ومسترشدا بضوء البرق الخاطف الذي ما يزال يملأ الأفق. أما هو، فقد ألهمت فيه حالة السماء أن يكتب على ضوء شمعة كانت توضع في المكتب كإضاءة بديلة في حالة الطوارئ، بالقرب من وسيلة تدمير المكتب، والتي كانت عبارة عن زجاجة مليئة بالنفط،

وظيفتها هي إحراق المكتب بكل محتوياته في حالة اقتراب العدو منه. بدأ يكتب بطريقته الحاملة، فقال بأن قصة الحب الأبدية التي تكمن بروح الإنسان تتغذى منها أنواع حب كثيرة، بل وتضيف إلى الأدمية التي فطر الإنسان عليها شعورا يتميزين إنسان وآخر، فكان كما كتب بأن شعوره بآدميته يكون من خلال تذوقه كل جمال، فالجمال يولد الحب، والحب يكمن في كل شيء، يكمن في الحياة والمرأة، في الصوت والوردة والليل. وبعد إكماله يومياته، ذهب ليريح جسده من أجل واجبه الجديد، والذي ود لوفيه يفنى ويرحل إلى ما رأى وعاش، فقد عاد المطر والبرق بلا انقطاع وبقوة، مع استمرار الظلام بسبب عطل أول الليل، ثم كان البرد ينزل بحبات كبيرة بيضاء جميلة، كان يتابع المشهد من خلال الممر وفي أذنيه سماعة الراديو الذي كان مشوشا من شدة البرق، وبعد نصف ساعة، قلت حدة البرق، وعاد صوت الراديو واضحا بإذاعة صوت العرب من القاهرة، وقد كانت تبث نهاية تمثيلية صوتية، سمع فيها صوت رجل مرتجف يريد الاعتراف بحبه لامرأة، ثم اعترف لتخبره بصوتها الجميل بأنها تبادلته الحب أيضا، وكانت تنتظر منه قول ذلك. قبل اقتراب الضياء الأول، تذكر ما قاله له أوس مرة، في بعض ليالي الصيف التي قضيا واجبيهما معا من أجل المحاورة وإلهاء بعضهما الآخر من إزعاج رتابة الواجب. فقد اشتكى لأوس حالة كانت به، فقد كان يصاب بالصداع حينما يستيقظ مبكرا، ويستمر صداعه طول النهار إلا إذا نام، فقال له أوس بأن الجيش فرصة ممتازة لعلاج حالته هذه وهي الاعتياد على الاستيقاظ مبكرا، والحقيقة، إن نصيحته تلك كانت العلاج الواقعي لذهاب الصداع، فمنذ اليوم الأول في الجيش وإلى ما

أخبره أوس، كان يعاني الصداع، إلا أنه كان يتجاهله وحسب، ولم يخبره أحد مطلقا مع أنه كان يعبت برأسه لوقت طويل، أما سبب تذكره لذلك، فقد اعتقد بأن صورة المكان التي حمضتها ذاكرته وأخرجتها بدرجة نقاء عالية، لم يكن للمطر والبرق دور في غسل الوجود الذي يحيطه، إنما ذهنه الذي استوعب كل لحظة أبرقت السماء فيها فأضاءت مباني الفيلق المنتشرة فيه، وكل المساحات المغطاة بالنباتات الصغيرة، وكل العجلات القديمة المشاركة بالحروب الشهيرة. كان يصور من أجل ذاكرتين كما كتب في الليلة التالية، ذاكرة الورق، وذاكرة ذهنه ذات الصور الملونة. فترك مكان حراسته بعدما كشف الضياء برك المياه الكبيرة والكثيرة المنتشرة في كل مكان، قائلا لنفسه: أدري بأن لحظات الهيام هذه لن تتكرر في عمري أبدا، لكنني لن أجعل من النسيان طارئا لمحوها، وإلى آخر يوم من حياتي. وبينما كان طارق مشغولا بالعمل في المكتب، كان هو يقص له كل تفصيلة مما حصل، وبطبيعة طارق التي كان هو يعرفها، فقد كان ينصت له بينما هو منشغل لإصلاح مدفئة عاطلة وصدنة تعمل بالغاز، بدأ بتحويلها إلى كهربائية بربط أسلاك حرارية فيها، فلم يحتمل تلك الطبيعة الموجودة طارق حتى قال له إن الشتاء قد قارب على الانتهاء، وبعد يومين سيحل آذار بربيعه ودفء شمس على البلاد كلها، فقال له طارق وهو يحاول فك برغي مدفون بالصدأ بأنه إن كان يتصور بأن الشتاء القادم لن يكون هونا، فعدد الشتاءات التي سيمضيها في الجيش ستستمر حتى بلوغه الستين عاما. حينما أخبره ذلك، لم يكن ليتصور موتا موجودا مثلما وجده في طارق، بل إنه قال له بأن سنواته الأربعة والثلاثين التي يبذرهما

هنا هي ضحية على القانون إنقاذها، فكيف بإمكان أحدهم انتظار أن يكون في أواخر العمر كي ينال بعضاً من حريته، إلا أن طارق أخبره بأنه تطوع إلى الجيش بصفة نائب ضابط لحاجة مادية، وكانت الحكومة تغري المتطوعين بمال جيد وقطعة أرض للسكن وسيارة. وبالفعل فقد أعطته الحكومة كل ذلك، لكنها أخذت منه حياته في الجيش بعقد أمده ثلاثين سنة، ولم ينكر ندمه إزاء تطوعه، إلا أنه اعتبر بأن القدر قد أودى به إلى هنا، وعليه أن يستوعب الأمر كل حياته، وإلى النهاية. وخلال هذا الحديث، أكمل تحويل المدفئة ليفاجئ صاحبه بشيء لا يعرفه أحد عنه، إلا نواب الضباط، كان باستطاعته إمساك أي سلك موصول بالكهرباء دون أن يصاب بصعقها، أما سبب ذلك، فقد كان يجهله كل من علم به، حتى هو، لكن الصدفة قد أخبرته حينما كان في سن السابعة عشرة، وقبل أن يتطوع في الجيش بعام، حينما سقط عامود كهرباء في عاصفة من عواصف شهر تشرين في الموصل، ورمى كل أسلاكه عليه، فاجتمع الكثير من الناس قربَه وهم يشاهدونه بين الشرر المتطاير من تلك الأسلاك، وظنوا بأنه فارق الحياة، ولما أراد أحدهم إنقاذه بسحبه قليلاً وإخراجه من الشبكة التي اصطادته، فارق الحياة بمجرد أن أمسك به، وبعد نصف ساعة من الحادثة، وصل المسعفون، ليجدوا طارقاً مغى عليه، ومصاب بجلدات الأسلاك فقط. وبعد أيام اكتشف الحقيقة بنفسه حينما أدخل إصبعه بمفتاح مكسور لجرس أحد المنازل، ثم حاول مرة أخرى حينما ربط محرك مبردة هواء منزله وأخبر أباه بأن يدير الكهرباء، فكان المحرك يدور بينما طارق ممسك به، لكن الأمر لم يكن يعني أي شيء لكل من كان يكتشف

ذلك سوى مفاجأة تستمر لدقيقة لا أكثر. ولأجل المفاجأة، فقد أراد طارق مباغطة البروفيسور بمزحة كهربائية كانت تصعق بجسده، ولم يكن يتذكر من طارق وقتها سوى ابتسامته الجميلة ويده التي تسمك به، فعلم بالأمر بعدما انتهت المفاجأة، ليصب جام غضبه على طارق الذي كان يضحك كمن كان يشاهد مسرحية لعادل إمام، فقال له: كنت أشتم الدولة بسري وهي تبدد بعمرك إلى سن الستين، لكنك تستحق أن تكون هنا لعشرة آلاف سنة. فترك المكتب للبحث عن هواء يستنشقه بعدما كاد أن يموت من الفزع. لكنه وبعد انطفاء لهيب المفاجأة، بدأ بالضحك لوحده وهو في الطريق إلى الحانوت عند العاشرة ليلاً، وتذكر غضبه على طارق الذي لم يفعل بعد ذلك أي شيء، وفي الصباح كان قد وجد الثعلب قد التحق وحل مكان طارق الذي ذهب بإجازته ولعشرة أيام مع رسالة وجدها في حقيبته يخبره بها بأنه أخذ كتابين منه من أجل الطريق الطويل، والمتعة بقراءة كتبه الجميلة.

كان في وده لو أن الأمر بعلاته المريرة، وعبثيته البلهاء يستمر حتى نهاية خدمته، لكنه هو أيضا، كان من علاته أن يستوعب ما هو طارئ ببطء وغباء متعمد، وموت عبيد قد أضاع جانبا من مخيلته التي كانت تروي له بأن اليوم الأخير له بالجيش سيودعه بتذكير مهم، وهو توبيخه في أول أيام إرساله إلى هذه الوحدة، لكنه حذف كل ذاكرة تدين ذلك الشخص حينما رآه طريح الفراش وليس بإمكانه تحريك أي جزء من جسده سوى عينيه وهو يقلبهما نحو كل من جاء إليه كي يراه. كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها شخصا سيموت، بل حتى إنه لم يكن يدري بأن عبيد سيموت لولا نائب ضابط ريفي مسن رآه وقال إن الموت يدنو منه وسيأخذه. وبعدما تم نقله إلى المشفى العسكري في الصويرة، كان البروفيسور يحاول تفكيك لغز النظرات التي ألقتها عبيد عليه، وماذا كان يريد قوله، لكنه توقف عن ذلك بعدما سمع نبأ رحيله من الحياة، وقال: لقد كانت نظرات عبيد المسكين تنقل وداعا محزنا لكل شيء، الجيش، والحروب، وخريطة العراق التي وثقت له كل الأماكن التي تنقل فيها أثناء خدمته الطويلة، ومن ماتوا، ومن بقي معه حتى النهاية. أما الدرس الأكثر تأثيرا كان فيه، هو فعل الشفقة التي كانت تتأجج بداخله كلما مر من المشفى الذي مات فيه عبيد، فيتذكر اللحظة التي خزنتها ذاكرته حينذاك، برغم المكان الجميل الذي كان

يحيط بالمشفى، والذي كان مبعث تأمل له، حيث الطبيعة التي تحيط المبني، والعزلة التي ميزته وهو محاط بأشجار النخيل والبرتقال. وبكل صعوبة تجاوز أمر إشفاه المركز حينما وجد أن الحياة عادت لطبيعتها الأولى بعد يوم واحد لا أكثر من رحيل رئيس العرفاء، وجد الثعلب يضحك وهو يبادل التهاني مع الرئيس الجديد، بل حتى إنه جلس على نفس السرير الذي كان ينام فيه عبيد، وتذكر الليلة التي فيها دخل تلك الغرفة ليعرف من لوحة الواجبات موعد حراسته، فوجد الثعلب نائما بجوار عبيد وفوقهما طبقة بطانيات سميقة. لكن شهر أذار أنسى ذلك الشخص ذكريات البرد الموحشة، وأنساه طبعاً ذكريات الدفء في أقصى ليالي الشتاء. كانت أوقات الظهر لأذار مبعث كسل وضجر، فطول النهار كان يترك فيه مللاً من رتابة الوجود، برغم من أنه يدري بأن الربيع قد حل، إلا أن الأرض المغطاة بزيت سبخها، لم تترك لهذا الموسم أي فرصة لإنبات أي وردة فيها، بينما كانت الشمس تشرق بصفاء بصباحات كانت أكثر شيء يدونها، إلا أن الملل في باقي اليوم، والبعوض والجردان أعادت به إلى ذاكرة أراد أن يتقياً حينما مرت منه بسرعة خيالية، أعادت إليه ذكريات الدخان المكافح للبعوض، وموسم تكاثر كل شيء كرهه. وجد بأن الليل صار البرد فيه يشح، وأن الشتاء قد لم متاعه وأبقى بعض عواصف ستأتي بزيارات مسرعة مع بعض المزن. كتب بأنه يخشى مواجهة ذكريات مقرفة تحاول إحياء نفسها بهذا المكان، وأن رحيل الشتاء سيفقده أجزاء كثيرة من الترحال والتأمل، لكن ناحية الأمل المشرق هي في الزمن الذي يتحرك نحو نهايته مع رحيل أي شيء، المواسم والشخوص وكل شيء. وما تبقى سوى ربيع وحفنة من

صيف لا يمكنه تصور كيفية اجتياز مسافاتها، وبدأ مع إجازته بخطة جديدة في الهرب نحو الحلم، في رحلتين، أولهما، كانت إلى الجامعة، بعدما وجد بين أنقاض ذاكرته مقالا أعطاه بيوم ما إلى الجريدة من أجل نشره، ومنذ التاسعة والنصف وحتى الواحدة بعد الظهر كان الوقت يتضح له أكثر فأكثر بأنه المعتوه الأكثر سخافة في الكون، فعقارب ساعته كانت تتسم بخفة كمن يتعاطى المنشطات حينما التقى بفتاة تذكر فيما بعد بأنها قد أجلت دراستها لعام واحد، وأول ما قاله لها حينما رآها: إنك آتية من الزمن الجميل. فقبلت دعوته في قضاء الوقت كتخفيف له عن الآلام العسكرية التي كانت تشعر بها فيه بعدما عانى قبله أخٌ لها. كان خلال تلك الساعات التي أنعش روحه فيها، يقلب صفحات الأزمنة الماضية بكل روية، لدرجة أن صوت من تجلس بجانبه يختفي وهو يشاهد الصور القديمة والجميلة. فيستيقظ على حركة يدها وهي تلوح فيها أمام عينيه في محاولة إعادته. اقترحت له أن يكمل الدراسة هنا من أجل إيصال أزمنة الذاكرة ببعضها، فأجابها بأنه سيفعل ذلك لو تم استحداث مادة الحب في الكلية. فانتهى اللقاء عند تلك الجملة بعد ثلاثة ساعات من الحديث، واتفقا على فراق مكلل بالوداع والأمنيات الجميلة لبعضهما. ليتجه هو إلى قسم الإعلام كي يشرعن مجيئه إلى الكلية، وبعدما سأل موظف الاستقبال الذي تجلس بقربه موظفة جميلة عن المقال. قال له الموظف إنه لو كان متابعا حقا للجريدة لعلم بمصير مقاله. لكنه لم يشر له بكذبة أخرى بكونه جندي وله ظروفه، بل نظر إلى الموظفة الجميلة التي رمت أنظارها إلى الأرض وقال: لقد كنت أصرخ. فقال له الموظف: إذن فلتصرخ خارجا. فتذكر

بعدها خرج بأن الصرخة التي أطلقها على محطمة الزمن، لم تكن النهاية في إثبات وفائه لها، بل خلقت فيه فضولا أعطاه فرصة أخرى للذهاب إليها في رحلة أخيرة، أخذ فيها الدفتر المقفّل، وراهن بأن النسيان قد تكفل بكل من كان وقت صبيحته موجودا هناك. وفي آخر يوم من إجازته، كانت الكلاب التي تضاعفت أعدادها، تطارده كما لو ان لها ثأرمعه، إلا أنه وفي لحظة حاسمة، رمى الدفتر بكل قوته نحو منزلها، وعلى يقين بأنها ستقرأ ما كتبه في الليلة الماضية، بعدما شرح لها كل تفاصيل زيارته إليها، وعن خيبات الأمل، إلا أنه يبقى الممتن الذي لن ينسى حضورها، مهما عاش.

اتضح له معالم الحر أكثر بالتعرق حينما كان يقطع مسافة الفيلق الطويلة، وبدأ يشعر بالجفاف ينال من مساحات روحه، إذ محاولات الكتابة لديه أخذت تشح أوقاتها، عكس الشتاء الذي كان يحول فيه كل لحظة برد، وكل قطرة مطر، وكل امتداد ضبابي كثيف، يحول كل حالة من أحوال الشتاء إلى كلمة يكتبها بخاطرة يصنعها حزنه من بين عوالم الظلام في ليالي الفصل البارد، حتى إنه كان ليستغرب مما كان يكتب بعدما يستيقظ في الصباح التالي متعباً من فرط سهره ومن إشغال كل ماكينات ذهنه في صياغة الكلمات من التأمل. ويكرر مقولته بأن أحداً كان معه يكتب بينما هو كان منتشياً بالليل. لكنه في الصيف يبدأ بالشحوب، فلا يخرج نهارة إلا لحتمية كميعاد حب. أما في الليل فتقل شكواه من الموسم وينعكف بالبحث عن راحة لروحه بنومة تهرب به من الواقع البائس. وفي كل نيسان من كل عام، كان يتذكروا الأستاذ ناجي، المدرس الجامعي الذي كان مصاباً بحالة نفسية قيل إنها من مضاعفات الحصار الاقتصادي، فقد كان الطلاب يلاحظون فيه التحدث مع نفسه كثيراً، وبتغيبه عن المحاضرات، وإذا حضر، فقد كان يستغرق مع نفسه لأمر لا يعلمه أحد غيره، غير أن الطلاب كانوا مرتاحين في درسه لأجل عدم الدراسة، أو الحديث مع بعضهم البعض، وكثير منهم صار لا يحضر درسه لضمانهم في عدم

إدراج أسمائهم ضمن الغائبين. كان عامر متأثراً لحاله كما البعض، إلا أنه لم يجد التشخيص الحقيقي الذي يقنعه سوى قصة حب مدمرة، حتى إنه انفجر ذات مرة ضحكا وهو يقول لصديقه: ما سيزيد طينتي بلة، هو أن حالي ستكون كما الأستاذ ناجي. أما تشخيص صديقه، فقد كان غير مهم بالنسبة لعامر، إلا أنه ضحك أكثر حينما قال له: والله يا عامر، أنت أصلا مخبل رسمي وحالتك ميئوس منها. ومع الأيام اختفى الأستاذ ناجي بعدما تشظى إدراكه فأعطته الكلية إجازة مفتوحة لحالته النفسية بعدما دخل إلى المحاضرة وسأل الطلاب عن تاريخ اليوم، فأجابوه بأنه الأول من نيسان، فظن الجميع بأنه سينتحر بعدما فتح النافذة وأخرج رأسه ثم أخذ نفسا عميقا وقال: اليوم حل الربيع. ثم خرج مبتسما دون أن يعطي للطلاب الدرس ليختفي. كان ما بين ذلك النيسان والنيسان العسكري عامين. إلا أن حضور الذكرى وهو في الجيش كان الأكثر وقعا فيه، حتى قال إن أيامه تعاني داء الأستاذ ناجي، وفكر بطريقة ما الالتفاف فيها عبر الزمن من أجل الابتعاد عن الإجهاد الذي أصيبت به روحه، فوجد الامتناع عن الكتابة أفضل كذبة نيسانية عليه تصديقها، والمضي بالتفاعل معها من أجل ألا يقع بفخ الانهيار. فقد بدت له نهاية الطريق بعيدة رغم اقترابها النسبي من موعد التسريح، إلا أنه يعاني من التعب لدرجة تشككه في المواصلة. فكان الحل الذي أتى من المجهول هو المنفذ الوحيد للخروج من معاناته. ترك كتابة يومياته، ووجد نفسه أكثر حرية مما كان، بل حتى إنه أخفى الدفتر تحت كل الكتب المحشورة في حقيبته، ولم يجد الاعتراض الهادئ من طارق حينما أخبره، لا سيما أن أمامه خطوات قليلة، لكنه استمر بعدما رأى

الزمن يسير بعفوية، وليس مقيدا بتواريخ على سطور دفتر. كان يشعر بأنه أخف مما كان، وأن حملا ثقيلًا وشفافًا كان يرمي نفسه على ظهره طول المدة التي كان يكتب فيها، وأخبر أوس الذي لم يكن مقتنعا هو أيضا بالفكرة الجديدة حتى لو تكلم معه لسنة ونصف أخرى، وليسبب واحد، فحينما كان أوس يستمع له وهو يقول بأن الزمن بدا أكثر سرعة حينما لم يعد يكتب بعض تفاصيله، وأن لا شيء في الوجود اسمه الزمن، بل هو خدعة ذهنية تهدف لمشاغلة المغفلين، والتجاهل هو أفضل وسيلة لكشف تلك الخدعة. أجابه أوس بأن ما يتكلم عنه هو ذريعة لا تمتلك دليلا صحيا واحدا. بدليل إن ما بدفتره هو تمسك أجلي للزمن، وبإمكانه العودة إلى أي وقت فيه بمجرد تصفحه. كان الجميع رافضين لفكرته، حتى علي وسمي الذي لم يكن يعرف ما يعني كلام الجنود الكتبة، أنه وقال له: أقسم بالله لو لم تعد ليومياتك، فسوف أخذ في إجازتي القادمة أبي وأمي ونذهب إلى أهلها ونخطبكما لبعض. كان الباعث الحقيقي له في اكتشافه بسرعة الزمن، نفسه هو ما أعطاه اكتشافات أخرى، وجعله ينتظر مضي شهر نيسان كله، والذي مضى كما أثبت للآخرين، بسرعة خرافية، لكنه بنفس الوقت كان يجد بأن تلك السرعة لا يمكنها اجتياز الماضي نفسه، وعاد إلى يومياته كمن يريد أن يدون الذي فعله، حينما كتب: إن الماضي يمتلك قضية حتمية في حياة المرء. وتمثل له الزمن بعناصره الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، إنها تمتلك وجهها واحدا يشبه وجه الإنسان، تتغير ملامحها كلما اجتازت مسافة ما. وأنهى تدوينه بمقولة لأوسكار وايلد، اقتطعها بيوم ما من جريدة وحفظها بواحد من كتبه، كانت المقولة تقول بأن محو

الماضي أمر ممكن، إلا أنها قضية ندم ورفض ونسيان، لكننا لا نستطيع اجتناب الحاضر أبداً. فكان الأول من أيار يوماً لا يمكن اجتنابه حينما تم إرساله مع بضعة جنود إلى نهر يبعد عن الوحدة نصف كيلومتر، من جهة البراري بتكليف غريب، وهو صناعة قطع من اللبن من الطين كان الجميع يجهل لمن يتم إعدادها. فكان يشاهد يديه كيف يتيبس عليهما الطين، واتساخت ملابسه، علاوة إلى الحروق والعرق والتعب. إلا أنه كان يشاهد الأمر باختلاف مع بعض الجنود الذين أحالوا الأمر إلى تسلية، فالأوقات التي اعتبرها الأتعس في حياته، هي نفسها يجدها الجنود الأكثر مرحاً في حياتهم، وحينما مرت سيارة تحمل خضاراً لمزارعين من الجانب الآخر للنهر، اقترح الجنود عليهم بمبادلة التبن الذي لديهم ببضع سجائر، فوافق المزارعون وحصل الجنود على علبة كاملة. وبعد إنجاز مئة قطعة من اللبن، والتي كانت العدد المطلوب منه ومن معه، رمى الجميع بأجسادهم إلى النهر، أما هو، فقد ابتعد مائتي خطوة عداها بنفسه، ثم ركض بأقصى سرعته نحو النهر، وكل أمانيه كانت ألا يسقط في الماء، إنما يحلق إلى السماء، دون رجعة.

ما انتبه له، وبعث بذاكرته تبدل الفصول ومجيء النهايات لكل البدايات، كان القمح الذي تبدل لونه من الأخضر الزاهي إلى اللون الذهبي المؤهل للحصاد، تذكر أول مرة رأى أرض ذلك الحقل حينما كانت سنابل القمح محصودة ولم يتبق منها غير سيقانها المتيبسة، ثم كانت دورة الأيام تريه اخضرار الحقل بعدما أعيدت زراعته لموسم جديد، ونمو السنابل يوما بعد يوم. وبالرغم من أنه كان يدون ملاحظاته من وجهة نظر متأمله لذلك المشهد وهو يذهب ويجيء بطريق الفيلق، إلا أنه لم يكن يدرس الأمر على أنه تقدم بالزمن، وأن النهاية التي يريد، وكان ينتظرها، قد اقتربت، لكنه لم يعترف بذلك إلا في الإجازة الأخيرة، التي قرر فيها كتابة تاريخ التجربة المريرة، والأحداث وتحولات الليل والنهار التي كانت تدور به، قرر كتابة ذلك بشكل منصف، والإقرار بما تعلمه من الدرس الطويل. لكنه لن يتنازل عن قضية حاسمة بالنسبة له ولكل خريج، بل لكل من كانت مواليدته تخبر الدولة بأنه قد دخل سن الثامنة عشر، وعليه الغوص في قاع العمر لثلاثة أعوام. فكانت نظرياته التي كانت الأذان تسمعها من جهة وتخرجها من الجهة الأخرى، مجرد حكي لحالة عبث كان الجميع مرغم على تقبلها. كان دائما يقول بأن طالب الجامعة المتخرج يجب ألا تكون خدمته أكثر من ستة أشهر من أجل ألا يضيع وقته

سدى، وأن تتقلص خدمة الثلاثة أعوام إلى عام ونصف، كانت نظرياته تلك قد لاقت تفسيراً مغايراً بعقلية علي وسمي، فحينما مر من السجن الذي تم تفريغه لافتتاح سجن مركزي يضم سجناء الفيلق جميعاً، وجد علي وسمي قد اتخذ منه غرفة خاصة له، بعدما طرده الجنود المشاة من غرفتهم بسبب حالات سرقة حدثت بينهم، وكان هو المشكوك فيه الأول. كانت الساعة العاشرة ليلاً حينما مر من باب السجن متجهاً للحنوت، فناداه علي الذي كان يخرج فراشه من السجن للمبيت خارجاً ليسأله إن كان يعرف متى تنتهي السنتان المتبقية من خدمته، فأجابته بأن الأمر لا يمكن حسابه بطريقة معينة، إنما تحتاج إلى صبر بغل يصعد جبلاً ومحمل بطن من الحديد. فضحك علي وسمي وقال له: سأكون بغلاً مجنوناً وكبيراً لوبقيت هنا. كان مما تأسف له في سماع خبر هروب علي الجديد، هو آخر نظرة شاهدها بعيني ذلك الشخص، فقد كانت مجردة من الأماني، بل كانت جافة وخالية من أي تعبير. والحقيقة التي كتبها لأجل علي في مذكراته كانت لا من أجل النكرة التي يكرهها كل الجنود، لكنها كانت من أجل أزمته كان الجميع له فيها دور، حتى لو كان الدور سخيلاً، أو أتى بطريقة عشوائية. فكتب عنه حادثة الليلة الباردة التي رآه علي فيها وهو يدخل سيجارة، وقال له: صديقي البروفيسور، هذه السيجارة مضرّة بالصحة، ولا تليق بك حتى، بل إنني أحبك بدون سيجارة. وبالفعل، فقد رماها في بركة ماء المطر قرب غرفة السجن، حينما كان يتأمل واجبه المطري الأول من نوعه في الليلة الفائتة، والتي أمست مجرد ذكرى. وكتب لأجل علي، حينما شاهده عصر يوم يتجول في الوحدة لوحده رغم استلامه نموذج إجازته

الدورية منذ العاشرة صباحا، لكنه لم يذهب إلى البيت لعدم امتلاكه الأجرة التي توصله لبغداد، وبعدما قال له علي بالحقيقة، أعطاه الأجرة وقال له: انصرف، وقل تبا لنا جميعا. كان جل ما ينتظره في التحاقه ما قبل الأخير هذا، هو الإجازة التي ستكون الأخيرة، برغم خبث الثعلب الذي مازال بنشاطه الأول، لكنه تعلم مع تقدم الزمن طريقة إتقان تجاهله، وعلى طريقة بأن لا يجعل كل ما يسمعه رأس مال. وصار يتصرف مع الثعلب كما لو أنه مصاب بلوثة ذاكرة الحروب وعليه تفهم حالته. كما أن درس رحيل عبيد أعطاه هاجسا ألا يرسم النهايات كما يشاء، وبالذات من هم بشاكلة الثعلب، فالأمر لم يعد يستحق التصور، أو افتراض النهاية كما لو أنها محاكمات. كان يكتب عن نهاية وشيكة تقترب، يشوش عليها الانتظار الذي امتد طويلا ما بين شروق الشمس في كل يوم عند ساحة العرضات، وبين الغروب الذي كان يمتن له بأكله بعضا من الزمن الماضي. وبالرغم من أوراقه الكثيرة التي دون فيها أزمته، لم يكن يرغب قراءة أي ورقة مما كتب، ولسبب مجهول، مع أنه يعرف بأن فصول مذكراته كان فيها بعض أشياء جميلة، بعض صور قد غطتها الأيام الكثيرة، لكنه حالما سيقرب أوراق مذكراته ستوضح تلك الصورة المختبئة كما لو أنها قد أخرجت توا من مختبر التحميص. لم يكن يرغب بقراءة أي شيء، وكان يكتب من أجل معادلة الزمن التي لم يتوصل لحلها بعد مضي أكثر من عام على انعكافه. فقال لعزيز المصري الذي التقط له آخر صورة له من أجل معاملة التسريح، بعدما رأى نفسه في الصورة وقد عادت تسريحته الأولى ذات الشعر المقلوب للخلف، مع قميص عسكري أخذه من شماعة الأستوديو ولبسه من أجل أن يظهر بالزي

العسكري. قال لعزیز: لا أدري لمَ صرت أرى نهايات كثيرة هذه الأيام، فها أنت تلتقط لي آخر صورة لي من أجل نهاية خدمتي، ونهاية وجودك في المحل، وفي العراق. فقال له عزیز إن من أصعب الأشياء في حياة الإنسان هو انتظاره النهاية، مع أن لكل بداية خاتمة مهما طال المدد. فتعانقا وتمنيا لبعضهما الأفضل. كان يمعن نظره في صورته كما لو أنه يشاهد التبدلات الكثيرة التي حلت بروحه، والأمر كله لم يكن مجرد زمن مزعج، بل الخفايا التي كانت تؤثر فيه خلال ذلك الزمن، فقد كان الجيش كما كتب، بأنه الحياة المتدفقة بلا توقف، والقوة الكامنة في الأجساد، وبدا له كقدر يطارد كل شخص يحمل إنسانية أو لا يحملها. كان تعريفه للجيش على أنه عالم مستمر به أو بدونه، وصانع موت جيد في الأزمنة التي تبدأ أدواته بالحديث خلال الحرب. لكنه رغم تدوينه ذلك، أقر بأنه من الصعب على مبتدئ مثله الوصول إلى الحقيقة المطلقة، لكنه كان يدون أيامه على أنها رحلة ذات في زمن صعب، وأن التغير الهائل الذي لم يكن بمقدوره تقبله، كان حالة قد أصيب بها الكثير وليس هو وحده، إلا أنه الأعلى صوتا كان في تدمره، مما لم يكن في الأمر من تأثير على الاستمرار باختناقاته، على طول المدة.

بآخر الأمتعة، حمل حقيبته واتجه بآخر التحاق، الحقيبة الحبرية نفسها، وحذاءه الذي ما يزال كما أول يوم استلمه سوى التقوس الذي حل به، فكان تاريخ ذلك اليوم يشير إلى أمنيته الخالدة والتي لن يكون بعدها بداية مكدره لنفسه، وأول المواضيع كانت عند وصوله هو التسريح. كتب عن الانتظار كملاحظة مهمة اكتشفها به بعدما لاحظ توقفه، بأنه كان العامل السري لتوقف الزمن، وأن علاقتهما عكسية ومتنافرة بجنون، فمتى ما كان الانتظار قائما، يصاب الوقت بعوق حركي مزمن، ومتى ما حلت النهاية، يتلاشى الانتظار ويحال إلى عدم. لاحظ بأنه ما عاد يفكر، وأن تلوث الصخب الذي كان بدماغه أبعد الصمت كما لو كان فاصلا بين حياة وأخرى، قال هو يطلق أنظاره إلى البراري البعيدة من سطح البناية التي تشرق على قفاها الشمس، وتغيب في وجهها، بأن شعوره بالابتعاد أخذ يكبر. فقبل تسريحه بثلاثة أيام، باغته طارق برحيل دون وداع، بعدما ترك سلامه ووداعه عند أحد الجنود، مع ورقة بيضاء رسم هو فيها بقلم الرصاص لشاب يرتدي معطفا طويلا، ويعلق على كتفه حقيبة، كان الشاب يتطلع لطريق طويل أمامه، تحفة الأشجار، وكلمة واحدة خطها بيده على جانب الورقة فعّلت بدواخله إيعاز الفراق في هذه الحياة، الإيعاز الذي كتب عنه ثلاثة أوراق في مذكراته، ووضع

له تعريفا على أنه الشيء الوحيد الذي لا تكفي العيون أن تبكي له، إنما القلب وحده من يحمل لوعته. قال: رحل طارق دن أن يودعني، صديقي الهادي الوقور المجامل ذو البسمة المحلقة. ثم ترك ثلاثة أوراق أخرى فارغة، كي يحاول فيها تفسير كلمة الرحيل التي كتبها طارق في لوحته، أو يحاول الكتابة عنها إن استطاع أي شيء، لكنه كان متيقنا بأنه لن يقدر لو أمضى عقدا كاملا في الجيش أن يفهم هذه الكلمة مهما بالغ في دراسة صنوف الحياة، فقد اكتشف بأنه لم يكن الوحيد الذي يتسامى بروحه فوق المعاناة، وأن إعلانه الصريح الذي كان يبثه كشكوى مرة، وككتابة مرة أخرى، كانت طريقة اعتيادية لمواجهة تقلبات الحياة، وأن طارق قد اختصر أشياء كثيرة له برسمة واحدة، كانت كفنار يرشد مركب حيرته التائه إلى الساحل، وكلمة كانت أكثر وجعا من كل بداية كان يصفها بالمظلمة بالرغم من أنها كانت تختصر أقسى النهايات. كان لأول مرة يرى الجنود وهم يسارعون لاستلام نماذج إجازاتهم الدورية، دون أن يشعر بالحزن لأنه سيبقى هنا، أو يشعر بالسعادة لأن نموذجه موجود من أجل الذهاب إلى المنزل ويقع في غرفته، أو ينفق الوقت في الترحال أو الهرب عبر نوافذ المرح. ولا يدري إن كانت المعزوفة الشجية التي كانت داوخله تعزفها طيلة المدة ستستمر بعد تسريحه أم لا، فقد كانت جميلة وتعجبه، وكثيرا ما كان يعزفها بصوته حينما كان ينطلق بتأمله في ليالي الواجبات الباردة، كما لو أنه مع حبيبة من حبيباته، أو حينما يكون وحيدا في غرفته خلال الإجازة فينتهي منها بضحكة ساخرة بكل شيء. في الساعة السادسة من عصر اليوم الأخير، كان بجيبه كتابه الذي حلم فيه طويلا، يشير إلى تسريحه

بخدمة حسنة قضى فيها فترة جنديته بدون غياب أو عقوبة، مما أتاح له تقليص مدة العام والنصف شهرا واحدا. في توديعه للثعلب، حذف من ذاكرته كل الصور التي أبقاها بهيئتها السلبية، والتي كان فيها الثعلب يظهر على أنه كائن مشوه غير معروف، إلا إن التراجع في عرضها له في اليوم الأخير كان أمرا طارئا، ولا يستحق الخلود لو بسطر واحد في دفتره، فودعه ببسمة السعيد بلحظة تسرحه، ودون الاكتراث إن كان الثعلب مهتما أو غير مهتم. وبعد وداع الجنود، كانت رغبته الأخيرة هي الصعود إلى السطح من أجل استنشاق الهواء القادم من البرية البعيدة والتقاط الصورة الأخيرة لجهات المكان كله كما لو أنه سيكون أجمل ذكرى عنده، ومع المغيب كان يقطع المسافة الطويلة بطريق الفيلق للمرة الأخيرة، يشاهد الحقل قد حصد قمحه وقال كمن يحاوره: حصدت يا قمح، وأنا تسرحت. عند البوابة الكبيرة للفيلق، بوابة عشتار الرمادية كما كان يصفها دائما، كان يشاهد نفسه في المرأة كما لو أنه يرى أحدا لم يره من قبل، لم يكن الجندي المتسرح توا، ولا ذلك الذي كان ينفق الوقت بالمرح. كان يشاهد مغفلا كبيرا كتب ذاكرته بكل جميلها المسالم ومؤلمها الراحل من أجل إيداعها الماضي، فشبك يديه خلف رأسه وهو يمعن في النظر إلى طريق الفيلق العميق، الطريق الذي بدا له كما لو أنه ممر سري يقوده نحو ماضي يمتلك قضية حتمية، في حياته.



رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، نحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية



arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك



facebook.com/arabiclibrary2017

طبعت بمطبعة يسطرون

01229300029 - 01157760052 - 01030244751